نظرية الصدق
عند سانتيانا

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

عبيد، سعيد على
نظرية الصدق عند سانتيانا/ سعيد على عبيد؛ تصدير: حسين على حسن. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/ ط ١/ القاهرة: ٢٠١٧م.
١٢٨ص؛ ١٧×٢٤سم
تدمـــــك: ١-٦٧-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٨٥٠٧
١- البراجماتية (فلسفة) ١- الصدق
أ- العنوان ١٤٤،٣

دار النشـــــر:	نيو بوك للنشر والتوزيع
عنـــوان الكتـــاب:	نظرية الصدق عند سانتيانا
المـــــؤلـــف:	د. سعيد على عبيد
تـــصـــديـــر:	أ. د. حسين على حسن
رقـــم الطبعـــة:	الأولى
تـاريـــخ الطـبـــع:	٢٠١٧

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيو بوك
٦ عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

نظرية الصدق عند سانتيانا

تأليف

د. سعيد على عبيد

كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى

تصدير

أ. د. حسين على حسن

كلية الآداب - جامعة عين شمس

NEW BOOK

نيو بوك للنشر و التوزيع

2017

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ

[الأحقاف: 16]

إهداء

إلى.. الذات.. والمعجزة.. والأسطورة..

زوجتي د. آمال السعدى

نبع النور فى سويداء القلب

د. سعيد على عبيد

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	7
تقديم الأستاذ الدكتور/ حسين علي حسن	11
المقدمة	15
الفصل الأول: واقعية سانتيانا الطبيعية	19
❐ حياة سانتيانا	21
❐ جـذور فلسفة سانتيانا	29
❐ واقعية سانتيانا الطبيعية	35
الفصل الثاني: التباين بين الصدق والحقيقة	45
❐ نظرية التطابق	47
❐ نظرية الاتساق	49
❐ النظرية الدلالية	52
❐ النظرية البراجماتية	53
❐ نظرية إمكانية التحقق عند الوضعية المنطقية	55
❐ نظرية الإضافة غير الضرورية	57
الفصل الثالث: سانتيانا والنظرية الواقعية فى الصدق	61
الفصل الرابع: الصدق المنطقى	75
الفصل الخامس: الصدق السيكولوجى	85
الفصل السادس: الصدق والزمن	93
الفصل السابع: نظرية سانتيانا فى الماهيات	101

الخاتمة 109
ملحق أعمال سانتيانا 115
مصادر ومراجع البحث 121

تقديم

يسعدني أن أقدم للمثقفين العرب بصفة عامة، والمتخصصين منهم في مجال الفلسفة بصفة خاصة هذا العمل العلمي الرصين عن «نظرية الصدق عند سانتيانا». ورغم الرصانة العلمية التي يتسم بها هذا العمل، فإن مؤلفه الدكتور سعيد علي عبيد "مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة" في كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي قد تناول الموضوعات التي عرض لها منتهجاً أسلوباً يتسم بالسلاسة والوضوح.

إن هذه الدراسة التي بين يدي القارئ مكتوبة بأسلوب واضح، وهذا الوضوح يدل على حسن الفهم من جانب المؤلف للموضوع الذي تناوله بالعرض . بعض القرَّاء يتصور خطأً أن الإمعان في الغموض يدل على عمق الكاتب أو المفكر؛ وهذا غير صحيح. والبعض الآخر، أو قد يكون هذا البعض نفسه، يتصور أن الوضوح والتبسيط يعني السطحية؛ وهذا أيضاً غير صحيح. إن الغموض غالباً ما يُخفي وراءه عجز الكاتب عن الفهم، وبالتالي عجزه عن التعبير والتوضيح والتبسيط، ومن ثمَّ يُحسب لمؤلف هذا الكتاب إنه كان حريصاً أن تأتي عباراته متسمة بالوضوح والدقة والإحكام، بحيث قُدت كل عبارة على قد المعنى الذي تشير إليه.

إنه مهما تختلف الآراء حول «جورج سانتيانا» وفلسفته، فإن تلك الآراء المختلفة جميعاً تلتقي عند القول بأنه شاعر وفيلسوف، إذ نجد الروح الشعرية قد اختلطت بأفكاره الفلسفية في معظم كتاباته، وذهب بعض ناقديه إلى حد القول بأنه نصف فيلسوف ونصف شاعر، أو أنه فيلسوف ناقص وشاعر ناقص، وأنه من ثمَّ أقل من فيلسوف وأقل من شاعر . . غير أن هذا القول ينطوي على ظلم بالغ وخطأ كبير.

الملكة الشعرية قد تدل على نصف فيلسوف ونصف شاعر متلاقيين في عقل واحد، عقل كامل من طراز فريد غير عقل الفيلسوف وعقل الشاعر، كما تدل على فراسة مطلوبة لذاتها لا لأنها فلسفية أو شعرية، وقد تنظر هذه الفراسة إلى الأمور نظرة يعجز عنها الشاعر وحده،

كما يعجز عنها الفيلسوف بمفرده، لأنها تحتاج إلى الملكتين مجمعتين. وهذا الاجتماع والاكتمال تحقق لدى سانتيانا.

وفي هذا الصدد يقدم عباس محمود العقاد تشبيهاً رائعاً فيقول:

«إن المـاء يتألـف مـن الهيدروجين والأكسـجين، ولكننـا لا نقول مـن أجل ذلك إنـه هيدروجين ناقص أو أكسـجين ناقص، بـل نقول إنه مـاء كامل لا نقص فيـه، ونطلبه لأننا نطلب المـاء لا لأننا نطلب عنصراً مـن عناصره المركبة فيـه، وكذلك يحدث حين يحسـن التوفيق بين النظرة الفلسـفية والنظرة الشـعرية، كما حسـن التوفيق بينهما في عقل سانتيانا الشاعر الفيلسوف».

الجدير بالتنويه أن «سـانتيانا» كان رائداً للنزعة الطبيعية في مجال الفلسـفة، فهو يرى أنه ليس وراء الطبيعة شيء، فكل شيء في جوف الطبيعة ذاتها، فإن كان الإنسان جسماً من ناحية وعقـلاً من ناحية أخرى، فتلـك الناحيتين من مقومات الطبيعة على حد سـواء، وبهذه النظرة تتخلص فلسفة «سانتيانا» من التفكير الثنائي الذي كان يشطر الكون شطرين، جسماً وعقلاً، وبالتالي ليس بنا حاجة إلى البحث عما وراء الطبيعة لتفسير ما يحدث فيها.

أما بالنسبة لموضوع هذا الكتاب فهو الصدق فى الفلسفة الواقعية النقدية عند الفيلسوف الأمريكي جورج سـانتيانا، حيث نعتت نظريته فى الصدق باسـم النظريـة الواقعية، وخرج سـانتيانا بنظريته فى الصدق من إطارها المألـوف وهو المنطق ونظرية المعرفة، لكى يصوغها فى إطارهـا الجديد وهو إطار الوجود أو الأنطولوجيا، وبذلك تُعَد نظرية سـانتيانا فى الصدق من أهم النظريات التى شـكلت القضايا المنطقية بمزيد من الواقعية والخبرة، وبالتالى فهى نظرية جديدة وفريدة فى نوعها الأنطولوجى.

وينقسم الكتاب الذي بين يدينا إلى سبعة فصول وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

الفصـل الأول، وعنوانـه: «واقعية سـانتيانا الطبيعية»، عرض فيه الباحث حياة سـانتيانا وجـذور فلسفته ونزعته الواقعية الطبيعية. أما **الفصل الثاني، فقد جاء تحت عنوان: «نظريات الصدق بين الفلسفة والمنطق»**. في حين كان عنوان **الفصل الثالث: «سانتيانا والنظرية الواقعية**

فى الصدق». أما **الفصل الرابع، فعنوانه: «الصدق المنطقى»** وجاء **الفصل الخامس تحت عنوان: «الصدق السيكولوجى»**، وتحدث **الفصل السادس عن: «الصدق والزمن»** وأخيراً عرض المؤلف في **الفصل السابع لـ «نظرية سانتيانا فى الماهيات»**، وذُيِّل الكتاب بخاتمة جمعت النتائج التي توصل إليها المؤلف.

بقى أن نقول إن هذا العمل يكشف عن باحث جاد ومتميز، يمتلك أدواته البحثية ويستخدمها بدقة ومهارة.. نتمنى للمؤلف الشاب دوام التوفيق والازدهار.

الأستاذ الدكتور/ **حسين علي حسن**
أستاذ المنطق وفلسفة العلوم بآداب عين شمس
القاهرة في 30 مارس 2017

المقدمة

يعد مفهـوم الصدق Truth من المفاهيم المهمة فى الفكر الفلسـفى، حيث ارتبـط الصدق دائمـا بالاتجاه المنطقى فى نظرية المعرفة وفلسـفة العلم، ثم تطـور بعـد ذلك ليدخل في إطار فلسـفة اللغـة(*)، كما جـاء المصطلح فى الفكر الفلسفى والميتافيزيقى تحت مفهوم الحقيقة.

كان لمفهوم الصدق عدة نظريات أهمها: التطابق والاتسـاق والبراجماتية والسـيمانطيقية ونظريـة إمكانيـة التحقـق عنـد الوضعية المنطقيـة المعـاصرة، وكذلك نظريـة الإضافة غير الضرورية، وقد اسـتوعبت هذه النظريات أهم الاتجاهات الفلسـفية المعاصرة، فتوجهت كل نظرية نحو اتجاه محدد، فالتطابق للمذهب التجريبى، وكذلك البراجماتية والسيمانطيقية(**)، ونظرية الاتسـاق للمذهب المثـالى، أما نظرية الإضافة غير الضروريـة فاتجهت نحو الاتجاه المنطقـى المعاصر، فى حين اتجهت نظرية امكانية التحقق من المعنى إلى الوضعية المنطقية التى تقف بين فلسفة العلم وفلسفة اللغة.

أما بالنسبة لموضوع هذا الكتاب فهو الصدق فى الفلسفة الواقعية النقدية عند الفيلسوف الأمريكي جورج سـانتيانا، حيث نعتت نظريته فى الصدق باسـم النظريـة الواقعية، وخرج سـانتيانا بنظريته فى الصدق من إطارها المألـوف وهو المنطق ونظرية المعرفة، لكى يصوغها فى إطارهـا الجديد وهو إطار الوجود أو الأنطولوجيا، وبذلك تعد نظرية سـانتيانا فى الصدق من أهم النظريات التى شـكلت القضايا المنطقية بمزيد من الواقعية والخبرة، وبالتالى فهى نظرية جديدة وفريدة فى نوعها الأنطولوجى، وذلك لأن المنطق ليس علما للوجود، وإنما علم للتحقيق

(*) فلسفة اللغة هى مجموعة مترابطة من الدراسات يعكف عليها المناطقة والفلاسفة، تنشأ عما يقلقهم من أسئلة ومشكلات تتعلق باللغة، كما أن علماء اللغويات حين تطورت علومهم ذهبوا إلى الخوض فيها وبحث مسائل منطقية أو فلسفية تنشأ عن أبحاثهم اللغوية.

(**) هو أحد فروع علم اللغة، ويبحث فى دلالة الألفاظ، وتطور هذه الدلالة، ووضع أسس هذا العلم بريال Breag فى أخريات القرن الماضى.

والبرهان[1]. كما جمع فيها سانتيانا بين أسلوبين هما: عمق المثالية، وواقعية الفكر الأمريكى المعاصر، وعليها جاء هذا الكتاب تحت مسمى» نظرية الصدق عند سانتيانا».

ولقد كانت هناك عدة إشكاليات تدور فى ذهن المؤلف، وكانت سببًا فى أن يكون هذا الكتاب بهذه الكيفية التى أقدمها للقارىء، وهى:

1. ما جذور فلسفة سانتيانا الواقعية بوجه عام، وما هى جذور واقعية سانتيانا فى نظرية الصدق؟
2. ما هو مضمون الصدق فى فلسفة سانتيانا؟ وما الكيفية التى أرسى عليها سانتيانا مفهوم الصدق؟ و إلى أى حد اتجه سانتيانا إلى نقد النظريات الذاتية فى الصدق؟
3. كيف خرج سانتيانا بنظريته فى الصدق من إطار نظريته المعرفية ليصوغها فى إطار جديد ألا وهو الوجود أو الأنطولوجيا؟ وهل يعنى ذلك أن كل ما فى ذهن الإنسان من أفكار يقابله وجود حقيقى فى العالم الخارجى؟
4. إلى أى حد أثبت سانتيانا بأن للصدق أنواعًا ونظريات متعددة داخل الإتجاه الواقعى؟ وما هى أنواع الصدق التى أشار إليها سانتيانا؟
5. ما هو مفهوم الماهية فى فلسفة سانتيانا؟ و إلى أى حد خرج بالماهية من خلال عالم المثل الأفلاطونية؟ وما هى صفات الماهية؟

وعلى غرار هذه الإشكاليات جاء الكتاب فى سبعة فصول هى:

الفصل الأول: واقعية سانتيانا الطبيعية.

ويتكون من:

- ❐ حياة سانتيانا.
- ❐ جذور فلسفة سانتيانا.

(1) بول موى: المنطق وفلسفة العلوم، ترجمة د/ فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2009م، ص38.

❐ واقعية سانتيانا الطبيعية.

الفصل الثاني: نظريات الصدق بين الفلسفة والمنطق.

ويتكون من:

1. التباين بين الصدق والحقيقة.
2. نظرية التطابق.
3. نظرية الاتساق.
4. النظرية الدلالية.
5. النظرية البراجماتية.
6. نظرية إمكانية التحقق.
7. نظرية الإضافة غير الضرورية.

الفصل الثالث: سانتيانا والنظرية الواقعية فى الصدق.

الفصل الرابع: الصدق المنطقى.

الفصل الخامس: الصدق السيكولوجى.

الفصل السادس: الصدق والزمن.

الفصل السابع: نظرية سانتيانا فى الماهيات.

الخاتمة.

الفصل الأول

واقعية سانتيانا الطبيعية

الفصل الأول

واقعية سانتيانا الطبيعية

حيـاة سانتيانـا

ولـد الفيلسـوف الأمريـكي جـورج سـانتيانا «George Santayana» فى مدريد صباح يوم السادس عشر من ديسمبر لعام 1863[1]، وقد تم تعميده بعد ميلاده بسـتة عشر يومًا فى الكنيسة الكاثوليكية»سان ماركوس»San Marcos[2]. حيـث ولد وحيداً لوالده «أوغسـطين سـانتيانا»Augustin Santayana لكنه كان أخـاً لأخوة ثلاثة من أمه، وهى أسـبانية كانت قد تزوجـت زوجها الأول الأمريكي «جورج سـتورجيس»George Sturgis وأنجبت منه هؤلاء الأطفال الثلاثـة، كما وعدته قبل موته أن تنشأ أطفاله الثلاثة فى وطنه أمريكا، وأرادت أن تفي بوعدها، فأخذتهم ومعهم وليدها الجديد من زوجها الثانى الأسباني[3].

سافر سانتيانا مع أمه فى التاسعة من عمره إلى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث عاشـت أمه على هامش «الأرسـتقراطية» التجارية الأمريكية التى كان زوجها الأول ينتمى إليها[4].

---

(1) George Santayana: persons and places, the Background of my life, Charles Scribner's Sons, New York, 1944, P.1.

وانظر أيضا - عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص581.

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, Routledge and Kegan Paul, London, 1965, P11.

(3) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، دار الشروق، بيروت، 1979، ص152.

(4) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1987، ص323.

ولكن على الرغم من هذه الفترة الطويلة من العمر التى قضاها سانتيانا فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه لم يتخلى طوال هذه المدة عن جنسيته الأسبانية، لأنه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه أسبانى الأصل، وقد استمر فى الشعور بأسبانيته تلك المدينة الفاضلة، والتى أصبحت له نقطة الانطلاق التى منها رأى العالم[1]. ولكن على الرغم من اعترافه بأسبانيته فى مذكراته إلا أنه بعد أن عاش فترة طويلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، جعلته يشعر بأنه أجنبى عندما عاد إلى أسبانيا مرة أخرى[2].

وهنا يصف سانتيانا هذه التحولات والتنقلات التى حدثت فى حياته، فيقول «أن الحالة العامة للعائلة كانت حالة غير عادية، فلم نكن مهاجرين من قبل، كما لم يغير أحد منا وطنه أو وظيفته أو دينه، ولكن الظروف الخاصة هى التى أعطتنا هذه الخصائص الموروثة لهذا الانفصال فى أماكن مختلفة من الناحية الأخلاقية والجغرافية»[3].

وعندما كان الناشئ الأسباني الصغير قد تأثر بأبيه فى أسبانيا تأثراً قوياً، وذلك قبل أن يعبر المحيط مع أمه إلى أمريكا، حيث كان الطفل الصغير ينتمى إلى طريقة والده فى التفكير، فكان الوالد يصطحب ابنه الصغير - جورج سانتيانا - فى معظم تنزهاته، وهما يسيران معا على الأقدام لمسافات طويلة حتى كاد الطفل الصغير أن يتشرب وينغمس فى كافة تصرفات وسلوكيات والده العجوز، فأخذ الطفل عن والده اعجابه بكفاءة العبقرية الإنجليزية، وكذلك عدم الثقة بالتصورات والأوهام، فبث فيه الأب كراهيةً نحو التفكير التأملي الشاطح، وحبًا للتفكير القائم على الوقائع المباشرة، كما بث فيه - فى نفس الوقت الإعجاب بشعر «لوكريتوس» Lucretius، وكذلك رفض الدين باعتباره يثير فى النفس مشاعر الخوف والتعجب من المجهول وإكراه الناس عن طريق الخداع[4]. حتى أنهى الأب كلامه مع ابنه بقوله « يابنى إننى لا أعرف ماذا أريد، ولكننى أعرف جيدا مالا أريد»[5].

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, an Examination of his philosophy, Routledge - Kegan Paul, London and Boston, 1974, p.21.

(2) Ibid: p.21.

(3) George Santayana: General confession, in: the philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951, p.3.

(4) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 13.

(5) G. Santayana: persons and places, op. cit, P. 16.

وعندما ذهب سانتيانا إلى أمريكا لم يكن يعرف كلمة واحدة باللغة الإنجليزية، حيث كانت اللغة الأسبانية هى اللغة الرسمية لعائلته، على الرغم من أن أخواته الكبار من أمه قد استمروا فى التحدث باللغة الإنجليزية طوال الوقت[1]. وفى وقت قصير تعلم سانتيانا التحدث باللغة الإنجليزية على يد أخته «سوزانا»Susana، حتى أصبح سانتيانا متفننًا بهذه اللغة، وساعده فى ذلك أيضا أنه كان لديه آذان قوية وممتازة نحو الإصغاء والاستماع[2]. فتراه يقول مؤكدا ذلك «لقد التقطت اللغة الإنجليزية عن طريق الاستماع قبل أن أعرف كيف تكتب هذه اللغة، ولذلك فأنا أدين لهذه الظروف فى كونى أتحدث الإنجليزية بدون أى لهجة أجنبية أخرى سواء فى المدرسة الإبتدائية أو مدرسة بوسطن اللاتينية أو كلية هارفارد بعد ذلك[3].

وعندما بلغ سانتيانا العشرين من العمر، لم ير أبيه مرة أخرى حتى زار أسبانيا عام 1883، ولكنهم كانوا يتراسلون فيما بينهم عن طريق الخطابات التى كانت تمثل بينهم حلقة الوصل، وقد كتبت هذه الخطابات باللغة الأسبانية. وتوجد مجموعة كبيرة منها الآن فى مكتبة جامعة كولومبيا، وهذه الخطابات إن دلت على شىء فإنها تدل على تأثر سانتيانا إلى درجة كبيرة بأفكار أبيه، حيث نجد على سبيل المثال أن أوغسطين سانتيانا (الأب) يعبر عن رأيه تجاه الروايات الدينية عن العالم لابنه سانتيانا، بأن العقائد الدينية تؤخذ فى الإعتبار على أنها نوع من الشعر، وبالطبع عندما تم تعميد سانتيانا عمّد على أنه كاثوليكى، وقد تعمدت أخته سوزانا أيضا على أنها كاثوليكية، ولكن أخته كانت كاثوليكية متحمسة مما جعلها ترى أن أخيها سانتيانا يمثل واحداً من الكاثوليك، فى حين لم تر فى والديها أىّ إمكانية لوصفهم بالإيمان[4].

ولذلك كانت أقوى عاطفة عند سانتيانا تجاه عائلته، هى التى يكنها لأخته سوزانا غير الشقيقة، والتى تكبره بعشر سنوات، حيث كانت سوزانا القائد لهذه العائلة على الرغم من كونها مازالت فى سن المراهقة، فقد كانت كاثوليكية متعصبة مما سبب لها بعضا من التوتر فى علاقتها بأخويها البروتستانت، كما أنها علمت سانتيانا طهر وبراءة الكتب الدينية، حيث

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.22.
(2) Ibid: p.22.
(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 6.
(4) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.23.

رأت أن أخيها سانتيانا نما فى الصغر فى ظل الكاثوليكية، وذلك على الرغم من أن سانتيانا كان فى بعض الأحيان يحضر بعض القداسات البروتستانتية[1].

وفى هذا المقام لابد من ذكر تلك الأحداث العصيبة التى كان لها أكبر الأثر فى نظرة سانتيانا (التشاؤمية) تجاه الحياة الإنسانية وبخاصة الحياة الأمريكية منها:

الأولى: هى وفاة ابن عمته «أنتونيتا» Antonita الذى كان يعيش تحت كنف والد سانتيانا فى أسبانيا، حيث أن صرخات الحزن والأسى، وملامح هذا الطفل الميت الذى كان يشبه المرمر الأخضر Green Alabaster وهو ينظر إلى سانتيانا الصغير عند موته، فقد كان كما يقول سانتيانا عنه «طفلاً شديد الجمال لابد أن يعيش» too beautiful to be alive، فموت أنتونيتا جعل سانتيانا يشعر بهجر أمه له، كما جعله يشعر بنظرة تشاؤمية تجاه الحياة منذ البداية، حتى أصبحت الأشياء بعد ذلك فى منتهى الصعوبة[2].

أما الواقعة الثانية: فهى أن سانتيانا أصيب بصدمة شديدة ومفجعة عندما علم أن صديقه «سانبورن» Sanborn قد أصابه مرض الجنون، وفى عام1889 قام بقطع رقبته فى الحمام، وهنا يشير الواقع إلى أن العديد من الشباب الذين تخرجوا من جامعة هارفارد قد كانت نهايتهم مبكرة بالموت العاجل، وهذا الحدث كان يبدو لسانتيانا علامة للفشل فى الحياة الأمريكية التى لا تقدم أى هدف ثقافى أو أية حساسية للشباب الأمريكان[3].

أما عن المراحل التعليمية لسانتيانا، فقد التحق فى البدء بمدرسة مجانية لتعليم الأولاد الفقراء، ثم بعد ذلك التحق بمدرسة بوسطن اللاتينية، حيث قضى بها ثمانى سنوات كانت من أخصب سنوات عمره المديد، كما كانت سنوات النجاح[4]، وبعدها التحق بكلية هارفارد، وبعد تخرجه من كلية هارفارد، درس فى ألمانيا لمدة سنتين[5].

وفى عام 1888 عاد سانتيانا إلى جامعة هارفارد ليكمل دراساته العليا تحت إشراف

(1) Ibid: p.24.
(2) Ibid: p.22.
(3) Ibid: p.25.
(4) Ibid: p.25.
(5) Frederick A. Olafson: George Santayana, in: the Encyclopedia of Philosophy, Edited by, Paul Edwards, vol VII, Macmillan Reference, New York, 1996. PP, 282, 283.

«جوزايا رويس» Josiah Royce (1855 - 1916) وقد أكمل رسالته للدكتوراه فى الموضوع الذى تبناه بحماس تحت عنوان «نسق لوتزه الفلسفى»[1]. وبعدها عين سانتيانا بالجامعة نفسها محاضراً لمدة تسع سنوات، فأستاذًا مساعدًا لمدة تسع سنوات أخرى، فأستاذًا لكرسى الفلسفة بالجامعة بعد موت أستاذه جوزايا رويس، وظل يشغل هذا المنصب حتى غادر هارفارد سنة 1912[2]، وكان عندئذ قد أوشك على الخمسين من العمر[3]. وهذه تمثل الفترة الأولى فى تطور حياة سانتيانا الفكرية، وهى الفترة الأكاديمية فى جامعة هارفارد بأمريكا، وهى الفترة التى كتب فيها سانتيانا كتاباته الجمالية والفنية.

وهنا يصف سانتيانا تلك الحالة التعليمية التى مر بها فى جامعة هارفارد، حيث رأى أن البدايات السيئة له كطالب فى جامعة هارفارد قد تم اختتامها بنهاية مشرفة، فيقول عن ذلك «على الرغم من درجاتى المتوسطة فى بعض المواد إلا أننى حصلت على درجة البكالوريوس والماجستير من نفس الجامعة، حيث اعتقد أساتذتى أن موهبتى التأملية وفهمى و إدراكى للفلاسفة العظام جعلنى أتبوء المقام الأول فى الجامعة»[4].

وعندما كان سانتيانا هو الفيلسوف الكثير التجوال والترحال، فقد كان غير راضٍ فى أن يعمل فى مهنة التدريس فى جامعة هارفارد، فإذا كان قد أحب الدراسة لذاتها إلا أنه كره أن يكون مدرساً[5]، فتراه يقول عن نفسه «إنه اضطر إلى مهنة التدريس لأنه لم يجد صنعة أخرى يشتغل بها»[6]. وقد كتب فيما بعد قائلًا « كنت أكره أن أكون مدرساً»[7]. فعلى الرغم من قدرته على القراءة باللغة اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية والألمانية، إلا أنه لم يكن يتقن هذه اللغات بشكل كبير[8].

---

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.26.

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 19.

(3) زكى نجيب محمود: من زواية فلسفية، مرجع سابق، ص153.

(4) G. Santayana: persons and places, op. cit, P. 253.

(5) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 21.

(6) زكى نجيب محمود: فلسفة وفن، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1963، ص118.

(7) هنرى توماس ودانالى توماس: المفكرون - من سقراط إلى سارتر، ترجمة/ عثمان نويه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص473.

(8) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 6.

هكـذا نظر سـانتيانا إلى تدريسـه بالجامعة كنظرته إلى الواجـب الكريه، الذى لم يكن منه بد ليعيش أولاً، أو لكونه وسيلة ليدعم موقفه المالى فى رحلاته الكثيرة والمتعددة إلى خارج أمريـكا، كـما كان يدخر بعـض الأموال لـكى تعينه فيما بعد عـلى حياة العزلـة وتقاعده عن التدريس الذى كان متوقعًا[1].

ولقد زار سانتيانا إنجلترا عدة مرات فى عام 1896، حيث أظهر حبه وعشقه الشديد لهذه البلدة، كما كان على علاقة قوية بها، حيث كان يشـعر دائما بعاطفة جياشـة نحو التطورات الفلسـفية هناك، فقـد أقام علاقات واتصـالات كثيرة مـع بيرتراند رسـلBertrand Russell، حيث يبدو أن رسـل هو الرجل الإنجليزى الأول الذى قابله سـانتيانا عندما أرسـل إلى جامعة اكسـفورد، كما زار رسل الولايات المتحدة الأمريكية فى عام1886، حيث زار هارفارد لبضعة أيام وقدمه أحد الأشخاص لزيارة سانتيانا، ثم كون سانتيانا عنه انطباعات من منظور أن رسل مستمع جيد، وقد استمرت صداقتهم الحميمة حتى مات سانتيانا، ولقد أظهره سانتيانا فى إحدى رواياته وهى «البيوريتانى الأخير»the Last Puritan تحت اسـم «جيم دارنلى» Jim Darnley وهو الاسم الحركي والمستعار للورد جيم الذى اعطاه سانتيانا إياه لصديقه رسل[2].

كما يبدو أن سانتيانا كان على علاقة أقل سعادة مع الفيلسوف الإنجليزى جورج إدوارد مور G. E. Moore، كما استمتع أيضا بمناقشاته مع ماكتجارتMctaggart الذى أصبح صديقا حميما له، على الرغم من كونهم فلاسفة عظام لإتجاهات فلسفية مختلفة[3].

ولم يكن سانتيانا راضياً بتلك البلدة التى اختارها، فقد لطف العلم روحه وأرهف الشعر إحساسـه، فقد كان شـاعراً وفيلسـوفاً، كما عانى من صخب الحياة الأمريكيـة المدنية، فاتجه بالغريـزة إلى بوسـطن، وكأنـه أراد أن يكون قريباً مـن أوروبا[4]. وقد تزايـد بغض وكراهية سانتيانا للحياة الأمريكية بصفة خاصة وذلك عند وفاة والدته فى عام1911[5].

(1) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 21.
(2) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.26.
(3) Ibid: p.26.
(4) Will Durant: Outlines of Philosophy, Ernest Benn, Ltd, London, 1962, P. 418.
(5) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.27.

كـما لم يكن سـانتيانا يمـارس الألعاب الرياضية التى كان يمارسـها الصبيـة الآخرون فى طفولته، و إنما كان يستمتع بمشاهدة تلك الألعاب من خلال الصفوف الجانبية، وفى ذلك يقول عن نفسـه «لقـد كنت الطفل الوحيـد الذى لم يمـارس الألعاب الرياضيـة، فكنت أجلس فى المنزل طوال فترة النهار والمسـاء للقراءه أو الرسـم، وبالأخص كنت منهمكًا فى أى شىء أجده من كتب الدين أو الفن المعمارى أو حتى كتب الجغرافيا»[1].

ولكن إن لم يكن فيلسـوفنا - يمارس الألعاب الرياضية، فإنه كان له شـغف خاص بكرة القدم، فالمباراة كانت عنده بمثابة قصيدة مليئة بالحياة، وقد كتب فى هذا يقول «هنا على أرض الملعـب، ذات المسـاند العريضة، بعيداً عـن المدينة، حيث لا يظلك إلا السـماء ولا يحيط بك مـن بعيـد إلا التلال، وحيث الرياح دائمة الهبوب، يضيف الـصراع على الكرة جمالاً على جمال الطبيعة... هنا تلمع فضائل

الأبطـال فى صـورة مصغرة وتعود إليك النشـوة السـاذجة التى كانت تميز العـالم القديم وكأنك فى حلم»[2].

وعـلى النقيض مـن «وليـم جيمـس» William James (1842 - 1910)، الـذى كان لاعبًا إيجابيًا فى المباراة، كان سـانتيانا يفضل أن يبقى مشـاهداً سلبياً، إلا أنهما اشتركا أساساً فى معتقد واحـد، فعندهما أنه من الخير أن تمرن عضلات جسـمك لتشـترك فى نضـال مفيد للصحة لكنه شريف، وأن تطهر نوافذ روحك، لتتمكن من مشـاهدة منظر شامل واضح لجهاد الحياة خلال العصور.

ولذلك كان سانتيانا قليل الاهتمام بما يأخذ به المجتمع من أسباب الترفيه، فلم يتزوج قط، مـع أنه كان على الـدوام يتحدث إلى السـيدات، لكنه لم يراقصهن أبـداً، لأنه لم يكن يعرف الرقص، ويقول فى ذلك « لقد كنت أحب سـيدات بوسـطن واستمتع بالحديث إليهن، فهن قد سافرن كثيراً، وقرأن وتثقفن أكثر من الرجال»[3].

(1) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 6.

(2) هنرى توماس: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم، ترجمة / مترى أمين، مراجعة وتقديم/ زكى نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964، ص384.

(3) هنرى و دانالى توماس: المفكرون - من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص470.

ويروى عنه - أنه ذات يوم، بينما كان فى غرفة المحاضرة يلقى دروسه على طلابه، فحانت منه التفاتة إلى خارج النافذة، وأطال النظر، وكان الطقس بارداً ممطراً، ثم استدار إلى طلابه قائلاً لهم «إننى على موعد مع الربيع». فخرج من قاعة الدرس بخطوات سريعة ولم يعد بعدها أبداً[1]، فسافر إلى أوروبا حيث أقام حيناً فى اكسفورد (وكان ذلك إبان الحرب العالمية الأولى) وحيناً أخر فى روما، وبين الحينين أخذ يتنقل هنا وهناك فى ربوع أوروبا[2].

ولقد قضى سانتيانا ما بقي من عمره بصفة رئيسية فى الفنادق، أو فى زياراته لصديقه «سترونج» Strong، أو فى زياراته إلى أخته، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى عام1914 أجبر سانتيانا فى أن يمكث فى إنجلترا[3]. وفى عام1920 بلغ سانتيانا السابعة والخمسين من عمره، واستقر حينئذ فى فندق بروما حيث الجمال والطبيعة الخلابة، وكذلك الحياة الهادئة البعيدة عن الإزعاج والاضطرابات، لذلك قضى في هذا الفندق فترة طويلة مما تبقى من عمره[4].

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام1939 كان سانتيانا قد بلغ من العمر إثنين وسبعين عامًا، انتقل ليعيش فى بيت من بيوت العجزة والمسنين، تاركا الحياة فى الفنادق، وذلك لإرتفاع أسعارها، كما كان فى حاجة إلى من يقوم برعايته وذلك لكبر سنه[5]. وفي 14أكتوبر 1944 انتقل سانتيانا إلى روما ليعيش داخل مصحة (عيادة) يديرها مجموعة من الرهبان الكاثوليك، حيث عاش ومات فيها بعد إحدى عشرة سنة من دخوله، ولكن الأمر العجيب هنا أن ترتيبات جنازته ودفنه كانت غير عادية، حيث أن المصحة التي كان يعيش فيها فيلسوفنا كانت تستقبل دائماً ضيوفاً ذو مكانة عالية وقدر رفيع، من حيث الاهتمام بهم داخل بيئة معيشية مناسبة، ولكن عندما مات سانتيانا بداء السرطان في 26 سبتمبر لسنة 1952، قبيل بلوغه التاسعة والثمانين بأشهر قليلة، طلب أن يدفن في أرض غير مقدسة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أساس تنشئة سانتيانا الطبيعية، ولكن كانت المقبرة الوحيدة غير المقدسة في ذلك الوقت هي مقبرة للمجرمين، لذلك رفضت القنصلية الأسبانية بروما أن يدفن سانتيانا في ذلك

(1) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 24.

(2) زكى نجيب محمود: فلسفة وفن، مرجع سابق، ص119.

(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.27.

(4) Ibid: p.27.

(5) Ibid: p.27.

المكان بعد موته، وخصصت له القنصلية مكاناً بالأوبرا الأسبانية، حيث أنه المكان المناسب ليكون مثوىً ومدفنًا للفيلسوف، وقد تحول هذا المكان بعد ذلك إلى مكان أثري وتذكاري لذلك المواطن الأسباني الباهر[1].

جذور فلسفة سانتيانا

يعد تتبع الخلفية الفلسفية لمعرفة مصادر فلسفة سانتيانا من الأمور الشاقة والمعقدة معاً، ويرجع ذلك - فى نظر الباحث - إلى عدة أسباب، يمكن إيجازها فيما يلى:

السبب الأول: يكمن فى أن سانتيانا بدأ أولى كتاباته بنظم الشعر[2]، فعلى الرغم من كونه أستاذاً للفلسفة فى جامعة هارفارد، إلا أنه لم يكتبْ مؤلفاته الأولى بوصفه فيلسوفاً، وإنما كشاعر، مولع ببعض صور الجمال والحكمة[3]. والدليل على ذلك كما يقول سانتيانا أنه بدأ كتابة الشعر فى سن الخامسة عشر أو السادسة عشر أى قبل فوزه بالجائزة الشعرية للقصيدة[4]. حيث أكد سانتيانا على ذلك بقوله « أما عن تذوق الشعر فقد تلقيته من استاذ انجليزى عظيم وجميل فى فكره، هو السيد بيرون جروتشه» Mr. Byron Groce حيث غرس فى عقلى هذه التأثيرات الدقيقة فى طفولتى، وقد امتدت هذه المؤثرات إلى العائلة»[5].

وبعد ذلك وفى متوسط هذا العمر كتب سانتيانا أولى قصائده، وفاز بجائزة شعرية عن قصيدة كتبها تمتلىء بالعواطف البيرونية الجياشة، فضلاً عن عبارات التشاؤم والأسى، كما احتوت القصيدة على وصف فضل الليل على النهار[6]. حيث قام سانتيانا حينها بترجمة القول المأثور عن «يوريبيديس»Euripides فى عبارته الشعرية»إنه ليس من الحكمة أن تكون فقط حكيماً» فكما يقول سانتيانا أن هذه المقولة الشعرية أعطتنى جملة المشاعر

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 133.

(3) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص323.

(4) G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 17.

(5) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 6.

(6) Richard Butter; the Mind of Santayana, op. cit, pp. 15:16.

والأحاسيس بل أعطتنى الموسيقى الشعرية التى بنيت عليها القصيدة المكونة من أربعة عشر بيتا[1].

لذلك نجد الروح الشعرية قد اختلطت بالأفكار الفلسفية فى معظم كتابات سانتيانا، لذا كان حقاً علينا أن ندعوه بالشاعر الفيلسوف أو كما قال عنه ا.وولف - أن سانتيانا هو أكبر شاعر فيلسوف تفخر به أمريكا اليوم، وفلسفته هى فلسفة الشعر والجمال والدين[2].

السبب الثانى: ويكمن فى كون فلسفة سانتيانا تضرب بجذورها فى الماضى البعيد وأعنى به - الحضارات الشرقية القديمة، وبخاصة الفلسفة الهندية عند بوذا حيث يرى «جى. جى. كلارك» - أنَّ الفيلسوف الأمريكي جورج سانتيانا قد أعطى للفلسفة الهندية كثيرًا من الاهتمام، ومن ثم كان «أهم متلقٍ أصيل لجمّاع الفلسفة الهندية»[3]. وبخاصة فى فلسفة سانتيانا الأخلاقية.

ويتمثل الأثر الرئيسى فى اهتمام سانتيانا بالفلسفة الهندية والبوذية فى اهتمامه بفلسفة «الفيناتا الهندية» - حيث تهيأت له الفرصة ليؤسس نقطة ارتكاز مرجعية خارج الفلسفة الغربية، ويستعين بها ليوضح آراءه فى الميتافيزقيا، وبدت الفلسفة البوذية واضحة بخاصة فى كتابات سانتيانا عن الأخلاق(*)، حيث أراد أن يُنشئ «أخلاقاً ما بعد العقلانية»- Post Rational Morality. والتى كشفت عن نواقص النزعة الأنانية، وأكدت بدلاً من ذلك على قيم التوازن الباطني والتعاطف مع الآخرين[4]. ولم يقتصر الأمر عند الحضارات الشرقية القديمة فقط، بل امتد التأصيل إلى داخل الفلسفة اليونانية، حيث صنع سانتيانا لنفسه بشكل فلسفى

(1) G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 241.

(2) ا.وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة/ أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936، ص222.

(3) جى. جى. كلارك: التنوير الآتى من الشرق، ترجمة / شوقى جلال، سلسة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 346، 2007، ص187.

(*) هناك بحث قام به «جون ماغنوس»- حاول فيه إيضاح أثر الفلسفة البوذية الهندية على فلسفة سانتيانا الأخلاقية - انظر بالتفصيل -

=John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana's Moral Philosophy, at,http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR - ADM/magnus.htm

(4) جى. جى. كلارك: التنوير الآتى من الشرق، مرجع سابق، ص188.

ونقـدى الرؤية الخاصة فى الحياة على طريقة كل من أرسـطو والتقاليد اليونانية القديمة، وذلك من أجل فهم و إدراك الحياة على أساس من التقدير والتقييم العقلانى للقيم بوجه عام[1].

ويـرى المؤلف أن هـذه الجذور الشرقية إن دلـت على شيء، فإنما تدل عـلى أصالة الفكر الهنـدى القديـم، بل تدل على أن الأسـاس الـذى نبعت منه القيـم الغربية بوجه عـام، والقيم الأخلاقية بوجه خاص هو الأفكار الشرقية القديمة، وهذا ما أكدت عليه فلسفة سانتيانا، كما أكد سانتيانا على نظرية هامة جدا وذلك بوصفه فيلسوفًا غربياً ألا وهى تهافت نظرية المعجزة اليونانيـة أمام الأفكار الشرقية القديمة، حيث أنه إذا كان هناك تأصيل لفلسـفة سـانتيانا لدى اليونان، فإن هذا التأصيل قد اقتصر على فلسـفة كل من أفلاطون وأرسـطو فى القيم، وفلسـفة ديمقريطس الطبيعية ولم يتدرج إلى الفلسفة اليونانية بوجه عام.

ومـن جانب آخر - قام أحد الباحثين ويدعى «سـوليفان» Celestine J. Sullivan ببحث ليعرض فيه «ميراث سـانتيانا الفلسـفى»Santayana's Philosophical Inheritance. فقام فيه بعرض جميع المصادر الأساسـية التى اسـتقى منها سانتيانا - فلسفته، ورأى سوليفان - أن فلسفة سـانتيانا تنبع من المثالية اليونانية، والمادية، والنزعة الشكية، أما النزعة الروحانية فقد جاءت إلى سانتيانا من فلاسفة القرون الوسطى والأفلاطونية المحدثة وكذلك الفلسفة الهندية، وعليها كما يقول سـوليفان تبدو فلسفة سـانتيانا حافلة بالتقليد كفلسفة جون ديوى (1859 - 1952) John Dewey- فى التعبير عن المزاج المعاصر[2]. فى حين أن سـانتيانا لا يوافق أن تكون معظم فلسفته حافلة بالتقليد، أو المؤثرات اليونانية، أو غيرها من المؤثرات التى ذكرها سوليفان، فقد أكد سانتيانا على ذلك بقوله «إن فلسفتى ربما ينظر إليها على أنها من صنع هذه التقاليد المختلطة والمتنوعة، أو على أسـاس أنها عبارة عن محاولة للنظر فى التقاليد المختلفة من حيث وجود هذه الحريات المتعددة بشكل عادل ومفهوم. فأنا لا أؤكد أن ذلك هو أصل وأساس نسقى الفلسفى، فعلى كل حال فإن صدق هذه القضية ربما يكوّن سؤالاً آخر، وهو إلى أى مدى كانت فلسفتى بعيدةً عن تلك المؤثرات؟ وما الكيفية التى كنت أحيا من خلالها»[3].

(1) Guy. W. Stroch: American Philosophy from Edwards to Dewey, an Introduction, van Nostrand Reinhold Company, New York, 1968, P.191.

(2) Celestine J. Sullivan: Santayana's Philosophical Inheritance, in: The Philosophy of George Santayana, edited by, P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 65.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 3.

وهنا يشير سانتيانا إلى حقيقة هامة، وهى الحقيقة العظمى التى تأثر بها سانتيانا فى فلسفته بوجه عام، وكانت بالنسبه له شعاع الضوء الذى به رأى العالم، وهى ذلك الأثر العميق الذى خلفه والده له وهو إيمانه بالإتجاه المادى والشعر ورفض الدين عن طريق استخدام الشك فى التفكير، فيقول سانتيانا عنه «لقد درس والدى الدولة والقوميات، وكتب كتابا صغيرا عن جزيرة ميندانو Mindanao كما أبحر وطاف حول العالم ثلاث مرات فى سفن الإبحار التى كانت موجودة فى هذا الوقت، وقد زار عن طريق الصدفة إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، وتأثر كثيرا بالطاقة الهندسية والتقدم العلمى الذى كان منتشرا فى تلك البلدان، ولكن شغفه وحبه العميق كان لروعة الإتجاه المادى، ومع ذلك كان لديه عقل شاك ومتقلب تجاه رؤيته وتمييزه للأشياء»[1].

وبعد أن صرح - سوليفان بتلك العناصر الجمة التى كانت سبباً فى تكوين فلسفة سانتيانا جاء ليوضح فى بحثه المذكور سالفاً - أن ذكر هذه العناصر ليس انتقاداً لأصالة فلسفة سانتيانا، وإنما أراد منها تقديم بعض العناصر التى ساهمت فى تكوين فكر سانتيانا التقليدى، وذلك لتذكير القارئ كيف عالج سانتيانا هذه الاشكاليات، وما الذى أخذه من سابقيه، وما الذى قام برفضه، وكيف جمعهم سانتيانا سوياً فى فلسفته الخاصة[2]. كما أكد سوليفان - بعد ذلك على أن العناصر الرئيسية التى شكلت فكر سانتيانا الفلسفى هى ثلاثة - الأفلاطونية اليونانية، والنزعة المادية، والنزعة الشكية[3].

وعندما تحدث سانتيانا عن تفضيله للفلاسفة اليونانيين أشار إلى الفلسفة الطبيعية عند ديمقريطس، وفلسفة أفلاطون الأخلاقية، وأقر سانتيانا بأنه يدين إليهم بالفضل فى تشكيل فلسفته الخاصة[4]. كما صرح سانتيانا بأن المدافعين عن الحياة والطبيعة هم الفلاسفة الأوائل (الهنود Indians وفلاسفة اليونان الطبيعيين معاً) وقد كانت أفكارهم أكثر وضوحاً عند اسبينوزا فى قضيته الرئيسية الخاصة بالعلاقة بين الإنسان وروحه والكون[5]. كما أعجب

(1) Ibid: P. 4.

(2)Celestine J. Sullivan: Santayana's Philosophical Inheritance, op. cit, P.66.

(3) Ibid: P. 66.

(4) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, p. 36.

(5) Ibid: P. 38.

سانتيانا بفلسفة ديفيد هيوم مما دعا «بالمر»Palmer (أحد أساتذة سانتيانا فى هارفارد) أن يقول(*) عن سانتيانا أنه يحتفظ بهيوم داخل عظامه[1].

أما هربرت سبنسر Herbert Spencer فيقول عنه سانتيانا أنه لم أتعلم منه أى شىء، ولكننى وافقته فى نزعته الطبيعية أو المادية، وذلك لأننا بدأنا معًا بالإفتراض الأدنى للإدراك والفعل، حيث قد اتفقت مع وليم جيمس فى نظرية سبنسر عن التطور والتى هى عبارة عن مجموعة من الكلمات أو عبارة عن تعميمات متباعدة من حيث أن بعض الأشياء ربما فى وقت ما قد تقدم وتفترض لنا[2].

أما هنرى توماس - فيرى أن فلسفة سانتيانا تكشف عن مزيج عجيب من الأفلاطونية، والإلحاد، والكاثوليكية، ومن العجيب أنه يدمج خيوط فكرة الثلاثة هذه - والتى يبدو أنه لا يمكن التوفيق بينهما - فى نسيج واحد متماسك من الحكمة [3].

السبب الثالث: يبدو فى تلك الفترة الوسطى التى قضاها سانتيانا دارساً ومدرساً فى أمريكا، حيث ظل سانتيانا فى أمريكا أربعين سنة من الطفولة حتى بلوغه متوسط العمر، تعلم هناك فيما بين رياض الأطفال والمدارس العامة، والتحق فيها بالكلية والجامعة، كما كتب فيها أحد عشر من كتبه، واكتسب سانتيانا قوة كمعلم للفلسفة حتى بلغ الخمسين من العمر، وفيها تقاعد عن التعليم فى يناير 1912، وترك شواطئ أمريكا ولم يعد إليها مرة أخرى[4].

وقد بدأت الخلفية الفلسفية لسانتيانا تتكون فى تلك الفترة، حيث درس فى هارفارد على يد جيمس فلسفة «تين»(**) Taine خاصة كتابه فى الذكاء، ونظريات كل من «لوك» و«باركلى»

(*) «I had Hume in my bones».

(1)G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 248.

(2) Ibid: P. 242.

(3) هنرى توماس: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم، مرجع سابق، ص387.

(4) Baker Brownell: Santayana, the Man and the Philosopher, in the Philosophy of George Santayana, edited by, P. A. schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951, P. 51.

(**) فيلسوف فرنسى، ومؤرخ للأدب والفن. ولد فى مدينة فوزييه Vouziers (فى أقليم الأردن Ardennes بشمال شرق فرنسا) فى 21 أبريل سنة 1828، وتوفى فى لاريس فى 5 مارس سنة 1893. واتسع ميدان نشاطه فى التأليف: فأصدر فى سنة 1853 كتابا عن: «لافوتين وخرافاته» وفى سنة 1856 كتابا عن «تيتوس لفيوس=

و«هيوم» و«سبنسر» كما قرأ عليهم جيمس مخطوط كتابه «مبادىء علم النفس» Principles of Psychology - ويقول سانتيانا عن براجماتية «جيمس» إنني لم استطع قبول حديث جيمس عن الصدق، حيث كانت براجماتيته مجرد نزعة تجريبية خالصة، وعلى الرغم من ذلك هزت العالم بأجمعه، وذلك على الرغم من أنه يقول عن جيمس أن ما تعلمته منه ربما كان أشياء لم يعلّمْها جيمس لأحد، ولكنى استوعبتها مما كنت أنهله من روحه، وطريقته التى كان يعلم بها[1].

أما عن رويس، فإن سانتيانا يقول عنه أنه كان يتمتع بعقلية علمية قوية، لذلك كان مفيداً بصفه دائمة فى أفكاره، إن لم يكن لطيفاً للاستماع إليه، والسبب فى ذلك - كما يرى سانتيانا هو أسلوب رويس الثقيل الجامد والتكرارى، وكذلك انشغاله الرتيب بنظامه الخاص الذى لا يطاق، وذلك مما يجعل تأثير جيمس يبدو أقوى على سانتيانا الطالب والفيلسوف من تأثير جوزايا رويس[2]. وعلى كلٍ فإن دراسات سانتيانا كانت متمركزة حول الفلسفة كما يرى اسبريج، وقد كانت فلسفة اسبينوزا الأخلاقية هى الفلسفة المفضلة إليه، كما كان الأستاذان الذين قاموا بعنايته هما جوزايا رويس ووليم جيمس، ولكن لم يشعر سانتيانا بأية عاطفة نحو فلسفة كل من هذين الأستاذين، ولكن بواسطتهم قد بدا أنه تأثر بهما تأثراً ملحوظاً[3].

وفى اعتراف سانتيانا بفضل وليم جيمس فى تكوين عقليته الفلسفية والفكرية - يقول عنه « إن ما تعلمته من جيمس ربما كان تلك الأشياء التى لم يعلمها جيمس لأحد، ولكنني شربت منه تلك الروح الفكرية، كما استوعبت تلك الخلفية التى كان يعلم بها طلابه ومريديه»[4].

= المؤرخ الرومانى الكبير» وفى عام 1864 أصدر كتاب «تاريخ الأدب الانجليزى» (فى 3 أجزاء) وبذلك استقرت مكانته مؤرخا للأدب وصاحب نظرية فى تفسير الإنتاج الأدبى مفادها أن الأدب حاصل عوامل ثلاثة: الجنس، والوسط، واللحظة. أما فى الفلسفة فله أولا كتاب «الفلاسفة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر» سنة1857، ثم كتابه الرئيسى فى الفلسفة ألا وهو «فى العقل» سنة 1870.

انظر - عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص432.

(1) ت. ل. س. سبيريدج: الصورة المميزة في الفلسفة الأمريكية، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200عام، إعداد/ بيتر كاز، ترجمة/ حسني نصار، مراجعة مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1983م، ص402.

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 30.

(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.26.

(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 15.

وعلى ذلك يمكن القول - أن سانتيانا كوَّن مع أستاذيه وليم جيمس وجوزايا رويس - فى أمريكا نوعاً من وحدة التأصيل التى تشير إلى ملحمة رائعة، لا فى تاريخ الفلسفة الأمريكية فقط، بل فى تاريخ الفلسفة الغربية أيضاً، هؤلاء هم فلاسفة هارفارد، الذين ظهروا فى عصر تميز باضطراب التطور هم وليم جيمس، وجوزايا رويس، وجورج سانتيانا[1].

تلك هى أهم المصادر الرئيسية التى كان سانتيانا يدين لها بالفضل فى أفكاره الفلسفية، أخذاً عن والديه الفكر المادى والعقيدة الكاثوليكية التى من صنع الخيال، ومن فلاسفة الهند واسبينوزا الفكرة الأخلاقية، أما فلاسفة اليونان فهم المصدر الرئيسي لفكر سانتيانا، وبخاصة ديمقريطس وأفلاطون وأرسطو، وكذلك الفكر الشرقى القديم، كما كانوا المصدر الرئيسى لكل فلاسفة المغرب والمشرق على السواء، أما جيمس وروريس فهما الأستاذان الفاضلان الذين أخذ عنهما سانتيانا أصول فكره الرئيسية فى أمريكا بل وأوروبا أيضاً.

واقعية سانتيانا الطبيعية

الاهتمام بالطبيعة ليس وليد الفلسفة المعاصرة فى القرن العشرين، فإذا كان الفيلسوف محل الدراسة يعد إمام النزعة الطبيعية فى القرن العشرين، إلا أنه لم يكن هو أول من صاغ للفلسفة الواقعية أساسًا طبيعيًا، حيث أشار سانتيانا بنفسه إلى أن الفلسفة اليونانية كانت تؤمن بالطبيعة والسياسة أكثر من إيمانها بالروحانيات، ولم يتيسر للفلسفة اليونانية حتى الآن أن تتحول إلى هذا الندم المتعالى الذى لعب دوراً كبيراً فى الفكر الهندى القديم، كما وجد ذلك الندم الترنسندنتالى بعد ذلك فى التأملات المسيحية[2]. وقد أشار سانتيانا إلى الفلسفة اليونانية قبل سقراط، حيث توصل الفلاسفة اليونانيون بشكل تقليدى إلى حقيقة الفلسفة الطبيعية، والتى تم تأسيسها و إعادة بنائها متأخرًا على يد اسبينوزا وكذلك العلم الحديث، فالفلاسفة الطبيعيون كما يقول سانتيانا يتنازعون فيما بينهم البين، وذلك بسبب كونهم مرتبطون فى مهمة إدراك ذلك الموضوع الذى لم يتحدد بعد، فهم حتى الآن مازالوا يرسمون و يتصورون البناء والتاريخ لذلك العالم الطبيعى الذى يحيا فيه كل واحد منهم[3].

(1) ت.ل.س. سبيريدج: الصورة المميزة فى الفلسفة الأمريكية، مرجع سابق، ص393.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , in: the philosophy of George Santayana, Edited by Paul Arthur schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951, P. 509.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.

واستكمالاً لما سبق، فقد أكد سانتيانا على أن أى دراسة أو وصف للأشياء الطبيعية فى مستواها الخاص عبارة عن دراسة أو وصف للمادة، وأن أى فلسفة لكونها مادية تماثل فلسفتى، حيث تعتبر دراسة أو علما للطبيعة فهى تعمل على درجة عالية من الكفاءة[1]. ولهذا السبب كما يقول سانتيانا استخدمت كلمة النزعة الطبيعية عوضًا عن كلمة النزعة المادية، وذلك لأعبر عن معتقداتى الأساسية، ولكن كلمة النزعة الطبيعية تبدو انفتاحية أكثر من اللزوم، حيث تستخدم كتعبير عن المراوغة السيئة، فالنزعة الطبيعية ربما تشمل فى داخلها النزعة السيكولوجية، أو ربما تعنى فقط إحدى الاهتمامات الأخلاقية أو إحدى النظريات المنطقية المتاحة للتفكير المطلق، أما مصطلح المادية فإنه يبدو لى أكثر أمانًا لأنه أكثر دقة[2].

ولقد أشار سانتيانا إلى أن كلمة الطبيعة أحيانًا تكتب بحروف كبيرة كما لو كانت الطبيعة تمثل العنصر الإلهى أو العنصر الشخصى، ففى الفلسفة القديمة والإدراك العام وكذلك العادات والقوى جميعها كانت تخص الطبيعة التى تتضمن بالتأكيد خاصية أخلاقية فى تكوين الشخصية. فالشعراء يمدحون الطبيعة، وعلماء اللاهوت يقومون بتكرار مناهجها الرائعة فى نظام واضح، فكل هذه الأساطير عن الطبيعة تكون أساطير طبيعية، وربما توضح هذه الأساطير بشكل أفضل التقدير الكامل لماهية الطبيعة خير من العلوم الفيزيقية الدقيقة[3]. ولذلك كانت كلمة الطبيعة كلمة شعرية بدرجة كافية، حيث تقترح للإنسان الفكرة الطبيعية لأصل نشأته، كما تسيطر على وظيفته الرئيسية[4]. فإذا كانت الطبيعة هى النسخة المطابقة والنسخة العظيمة للفن[5]، فإن الطبيعة كما يقول سانتيانا «عبارة عن لوحة فنية موجودة فى الذاكرة قابلة لأنقش عليها الرسم المنظورىPerspective لتجربتى الشخصية»[6].

ولقد بدت النزعة الطبيعية عند سانتيانا عبارة عن نسق ونظام أولى وأساسى، أو بالأحرى نستطيع القول بأن النزعة الطبيعية ليست نظام خصوصى على الإطلاق، حيث أن الهيكل الذاتى

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 507.

(2) Ibid: P. 508.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, Dover Publications, Inc, New York, 1925, PP 233,234.

(4) Ibid: PP. 237,238.

(5) Ibid: P. 236.

(6) Ibid: P. 242.

والحتمى للمعتقدات المعقدة فى الحياة الحيوانية، يجعل هذه المعتقدات لها أنظمة الفلاسفة المتنوعة من حيث أن تكون ممتدة وشاملة للبيئة الخارقة التى تكون طبيعية بالفعل فى جوهرها الخاص بها، أو تكون عبارة عن تأويلات أو تفسيراتInterpretation (كما عند أرسطو واسبينوزا) أو تكون عبارة عن مجموعة استنكاراتDenials (كما فى المذهب المثالى)[1]. وعليها لا يمكن أن تكون النزعة الطبيعية أكثر رومانسية، وذلك لأن الطبيعة حينئذ سوف تصبح عبارة عن قصة، ولا يمكن أن تكون هى العالم[2].

وعليها أصبحت فلسفة سانتيانا فلسفة طبيعية تفسر الطبيعة بنفسها، فهو يذهب كما يذهب الفلاسفة الواقعيون - إلى أن وعى الإنسان بشىء ما من أشياء العالم الواقعى دليل على وجود ذلك الشيء كما هو فى ذاته خارج الذات الواعية له، فمعرفة الإنسان للشئ الذى يدركه هى صورة تمثل ذلك الشيء تمثيلا صحيحا، على أن الانسان إذ يتصل بالأشياء ليدركها، فإنما يتصل بها اتصالاً مباشرًا لا تكون فيه حلقى وسطى بين الذات العارفة والشيء المعروف[3]. لأن هدف الفيلسوف الطبيعي كما يقول سانتيانا -» هو وصف العالم منذ بدايته Its beginning« (إن كان له بداية) وأن يحدد التحولات Transformations- التى تمت فيه عن طريق التحليل وليس عن طريق التصور[4].

ولذلك يستطيع العالم فى النزعة الطبيعية عند الفيلسوف محل الدراسة أن يحتوى بكل سهولة شتى الأشياء غير المادية تحت إطار وجودها المادى، وذلك مثل الكلمات والأحاسيس والمشاعر والأفكار، والتى من المحتمل أن يتم تمييزها فى هذه الخبرة الإنسانية، حيث أننا غير ملزمين أو مجبرين فى النزعة الطبيعية أو هذا الاتجاه المادى بأن نتجاهل هذه الأشياء غير المادية. فالخاصية الأساسية فى الأشياء غير المادية أنه يمكن إدراكها عن طريق كونها أسماء أو أشكال أو وظائف أو لكونها عبارة عن نتائج متلازمة لتلك الأشياء المادية[5]. كما أن الكائنات الطبيعية التى تظهر

(1) George Santayana: Dewey's Naturalistic Metaphysics, in: the Philosophy of John Dewey, edited by, p. A. Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951, p.245.

(2) Ibid: P. 253.

(3) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص154.

(4) G. Santayana; Realm of Being, op. cit, p. 194.

(5) G. Santayana: Dewey's Naturalistic Metaphysics, op. cit, p. 246.

فى عالم الواقع من المشاعر والأحاسيس الخاصة بالإنسان الطبيعى هى عبارة عن صورة أخلاقية لهذه الحياة الطبيعية[1]. فعلى سبيل المثال- إذا كنت أدرك هذا القلم فى يدى، وهذه الورقة أمامى، فلابد أن يكون القلم والورقة موجودين وجودًا حقيقيًا لا يجوز الشك فيه[2].

فإذا سأل سائل - كما يسأل الفلاسفة - ومن ذا أدراك حين تعى مجموعة من الصفات مجتمعة، ككون القلم وشكله وصلابته بين أصابعك، أن تكون هذه الصفات قد اجتمعت فى شيء خارجى له وجود مفارق لوجود أفكارك الكائنة فى ذهنك أنت ؟ أليس كل ما تعرفه معرفة مباشرة هو خبرتك أنت التى هى فى دخيلة نفسك ؟ فما الذى يسوغ لك أن تجاوز هذه الخبرة الداخلية المباشرة لتزعم أن شيئًا خارجيًا يقابلها[3].

أجاب سانتيانا - بما أسماه «الإيمان الحيوانى» Animal Faith - «وهو عبارة عن غريزة فطرية إدراكية أو يقين تجريبى أو حتى كونه عبارة عن سببًا عمليًا»[4]. ففى كيان الإنسان الطبيعى هذا «الإيمان» بأن معرفته الداخلية صورة من عالم خارجى موجود، على اختلاف ما بين الجانبين، فالجانب الداخلى وعى وعقل، والجانب الخارجى مادة[5]. وقد أكد سانتيانا على ذلك الإيمان الحيوانى بإعتباره مصدرًا للمعرفة، حيث يعد عند فيلسوفنا مصدر ثقته الوحيد فى هذه الحياة الطبيعية، فذلك الإيمان هو نفس الشيء الذى يعطي للطفل الصغير الثقة والآمان تجاه والديه أو تجاه الحيوانات الأليفة، كما أن هذا النمو العقائدى المخيف للدين الإنسانى هو إمتداد بهذا الشعور فى أن الطبيعة هى الشخص أو مجموعة من الأشخاص فى صفات ثابتة، ولكن فى شخصيات سهلة التطويع[6]. ولا يعنى ذلك أن تكون الفلسفة الطبيعية عبارة عن فكرة علمية، فيؤكد سانتيانا ذلك بقوله « إن فلسفتى الطبيعية ليست فكرة علمية، بل هى اقتناع عادل جاءتنى كما جاءت أبى من خبرة العالم وملاحظته.. ويبدولى أن غير الماديين لا يحسنون الملاحظة»[7].

---

(1) Ibid: p. 246.

(2) زكى نجيب محمود: فلسفة وفن، مرجع سابق، ص 120.

(3) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص155.

(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 585.

(5) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص155.

(6) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P,234.

(7) هنرى توماس ودانالى توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص471.

فإذا كان برتراند رسل قد أخبر سانتيانا فى انسجام جميل، أنه يتنهد كعاشق للمعرفة، و يطيع كابن للطبيعة[1]، ولكن سانتيانا يعتقد أن رسل كاد أن يدرك كيف يكون ذلك الإيمان وظيفة أساسية للشيء الذى أقوم بوصفه، حيث اعتقد رسل أن الإيمان الحيوانى الذى ينادى به سانتيانا عبارة عن بديل سيء للمعرفة فى مبادئها، وذلك كما يعتقد «بانفى»Banfi أن الماهيات بديل للموضوعات غير المعروفة فى نظرية المعرفة، ولكن الماهيات أوضح وأقرب كما يقول سانتيانا من أى شيء أخر قد أحتاج إلى البحث عنه أو تأكيده أو حتى احترامه، وهذا الإيمان الحيوانى بعيد كل البعد عن كونه بديلاً للمعرفة، إذ أن هذا الإيمان هو مصدر للاستعلام، فبسبب كوني أمتلك ذلك الإيمان الحيوانى، وأعتقد بأنه يوجد شيء يمكن اكتشافه أو يمكن الحصول عليه، فأستطيع أن أضع فى الإعتبار أن إدراكاتى هى إدراكات للمعرفة، وأن نضع فى الإطار تلك الافتراضات والتى بدون الإيمان سوف تصبح جميعها عبارة عن حدس للمعلومات والبيانات[2].

لذلك لابد من الركون إلى هذا «الإيمان الحيوانى» - لكى نفرق بين حالتين مختلفتين من حالات الإدراك: أولاهما حالة نثق فيها بأن «الجوهر» - أو إن شئت فقل «الفكرة» - الماثلة فى أذهاننا هى كذلك متجسدة فى شيء عينى خارجى، وأما الثانية وهى حالة نتعلم فيها أن «الجوهر» الماثل فى الذهن ليس متجسدًا فى شيء عينى خارجى، كما هى الحال فى المدركات العقلية وفى التصورات الخيالية وما إلى ذلك[3].

وذلك لأن المادة بتجديدها الذاتى هى أعمق شيء فى العالم، إنها أبعد شكل لكل شيء يمكن اكتشافه، فهى العالم الممكن اكتشافه بكامله فى حركته الأساسية، إنها ما ينبرى دائمًا أمامنا فى الحس وفى الفن و يستبد بمصائرنا[4]. وعليها يكون عندنا وجودين: وجود عينى يقابل الأفكار ذوات المسميات الخارجية، ووجود ذهنى لمدلولات الأفكار الأخرى التى نعرف أن ليس لها مسميات خارجية[5].

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 585.

(2) Ibid: P. 586.

(3) زكى نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1982م، ص204.

(4) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة/ لجنة من الأساتذة الجامعيين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت، ص127.

(5) زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص156.

إن الفرق الجوهرى بين الوجودين: الفكري من جهة والفعلي من جهة أخرى، هو نفسه الفرق بين ما كان أرسطو قد أسماه بالوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالأول وجود بالإمكان فقط، مستعد لأن يخرج إلى الفعل إذا ما توافرت الظروف المواتية، والثانى وجود متعين متجسد فى أشياء واقعية، وواضح أن الموجودات الممكنة أكثر عددًا من الموجودات الفعلية، لأن تصور العقل للممكنات لا نهاية له ولا حدود، وأما الموجودات الفعلية فمقيدة بالواقع الكائن المتحقق، فكل موجود فعلى كان من قبل موجودًا ممكنًا، ثم تحقق[1].

إذاً هناك عالمان: عالم الممكنات وعالم الأشياء المتحققة، وهذا العالم الثانى مسبوق دائمًا بالعالم الأول، إذ محال على شىء أن يتحقق وجوده فى العالم المادى إلا إذا كان قبل ذلك فكرة فى عالم ما هو ممكن، حتى إذا ما برزت إلى الوجود الفعلى حفنه من بحر الممكنات الزاخر، كان لنا بذلك ما نسمية «بالحق» - فما «الحق» إلا الممكن الذى تحقق ظهوره بالفعل، ولكننا قلنا إنه كان يمكن لغيره من الممكنات أن يظهر بدل هذا الذى ظهر فعلاً وأصبح «حقًا» و إذن «فالحق» أمر عرضى لا تحتمه الضرورة العقلية المنطقية، وأعنى بذلك أنه لم يكن هناك ما يحتم أن يظهر هذا الذى ظهر دون سواه، أى أن ما نصفه بأنه «الحق» كان يجوز ألا يحدث حدوثًا فعليًا، وعندئذ كان غيره هو الذى سيوصف بأنه «الحق»[2].

ويفسر سانتيانا ما سبق عن طريق المبادئ المادية الصرفة، وذلك هو ما يميز فلسفته بأنها فلسفة طبيعية مادية رغم كل ما اتصف به من شاعرية وروحانية، وذلك أنه جعل مبدأ اختيار العالم الفعلى الواقع من بين العوالم الكثيرة الممكنة لا هو بالمبدأ الخلقى كما ظن «ليبنتز» Leibniz (1646 - 1617). ولا هو بالمبدأ العقلى كما ذهب «وايتهد» Whitehead (1861 - 1947) بل هو مبدأ مادى صرف[3].

لقد أكد سانتيانا - أن نزعتيه المادية فى علم الطبيعة، والإنسانية فى الأخلاق، تعتبر أحد أنظمة الفلسفة المتكاملة، حيث كانت تلك النزعات هى مضمون الفلسفة اليونانية قبل سقراط، تلك الفلسفة التى كانت هيلينية حقاً، وتوافقت مع الحركة التى أنتجت أساس

(1) المرجع سابق: نفس الصفحة.
(2) المرجع السابق: ص ص156، 157.
(3) زكى نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، مرجع سابق، ص ص207: 208.

الأساليب اليونانية من حكومة يونانية وفن يونانى، والحركة نحو البساطة، والحكم الذاتى، والمعقولية فى كل شىء من الملبس إلى الدين، وهكذا كانت فلسفة عصر النهضة الأوروبية، حيث كانت إعادة تنظيم للعلم والحرية فى العصر الحديث قبل «بيكون» و «اسبينوزا» Spinoza (1963 - 1977) بل قبل المدرسة المعاصرة بأكملها التى ترى فى العلم مضمون الوقائع الحقيقية، وترى سعادة الرجال على الأرض فى مثاليتها، هذا النظام يدعى بالنزعة الطبيعية[1].

ولكن.. ما الدليل الذى يمكن أن يكون لوجود الطبيعة فيما تعنيه هذه الكلمة؟

يقول سانتيانا «إذا كنت أتحدث عن الكونUniverse بشكل عام، فإنه لا يمكن أن يكون هناك دليل قاطع، فالكون بالطبع يجب أن يكون فى كينونته الحالية، فلا يجب أن يكون له صفة أو خاصية، فالكون يجب أن يمثل فكرة الماهية، ولكن إذا أخذت الكلمة بالمعنى الكلى، فإنها ربما تعبر عن الفوضى achaos التى من خلالها لا يوجد شيئًا يكون مقدرًا، ولا متقدمًا أو متطورًا باستمرار، والتى فيها الأجزاء تكون ذاتية حول المركزSelf - Centered وتكون فيها الأحداث تلقائية[2]. وأن مثل هذا الكون الفسيح لا يمكن أن ندعه بالطبيعة لأنه لا يعطينا الميلاد، لأنه لا يملكه، ولا يعطينا التنشئة أو التربية، أنه لا يحيطنا بأى تأثيرات ثابتة أو مألوفة لدينا، أنه لا يعطينا أية بذور لنمو شجاعتنا أو تحذيرنا[3].

أما الدلائل لوجود الطبيعة فيجب أن نسعى وراءها فى مكان آخر، فى المنطقة التى تسمى بمنطقة الموناداتأو الذرات، والتى تعتبر كيان داخلى لكل موناد، وفى هذه الحالة فإن المواد أو الجواهرSubstance التى قد استخدمتها فى إذعان غرائزى الحيوية، فإنها تبدو كأنها تتصرف كما لو كانت أجزاء للطبيعة[4].

ويؤكد سانتيانا نزعته الطبيعية اليونانية الأصل فى قوله»هى عبارة عن مذهب طبيعى فيما يتصل بأصل الجنس البشرى وتاريخه، ووفاءً فى الشعور الأخلاقى ملهم من العقل، الذى يتصور

(1) G. Santayana: Three Philosophical Poets, Doubleday Anchor Books, New York, 1953, p. 13.
(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P, 235.
(3) Ibid: P, 236.
(4) Ibid: P, 236.

به الذهن البشرى الحقيقة والسرمدية، و يشارك فيهما بالفكرة»[1]. و بالتالى تصبح النزعة المادية العامة فى فلسـفة سانتيانا مثل أى نظام للفلسفة الطبيعية، لا تحمل معها وصايا ولا نصائح، فهى تصف العالم مجردًا، وتحيل كل ما فى العالم إلى أرض مادية[2].

(1) هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة / محمد فتحى الشنيطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص ص384، 385.

(2) G. Santayana: Three Philosophical Poets, op. cit, P. 36.

الفصل الثانى

التباين بين الصدق والحقيقة

الفصل الثانى

التباين بين الصدق والحقيقة

إن مصطلح «Truth» له مقابلان عربيان هما: الحقيقة(*) والصدق - ومن البديهي أن الكلمتين متداخلتان، فيجوز أحياناً إتاحة الحرية للمفاضلة بينهما، واستعمال ما يحبذه المترجم منهما، لكن فى المنطق وما يتصل به من نظرية المعرفة، لابد من استعمال كلمة « الصدق « كترجمة حقيقية لكلمة «Truth» لأن مدار الحديث هو صدق القضية أو التقرير أو العبارة، خصوصاً وأن الصدق هنا يقابل الكذب. وفي الفلسفة والميتافيزيقا، فإننا يجب علينا أن نستخدم كلمة «حقيقة» كترجمة لكلمة « Truth»[1]. وبالتالي يكون للكلمة الانجليزية» Truth» معنيان اثنان، أحدهما يستخدم في مجال المنطق ونظرية المعرفة، والآخر يستخدم على نطاق الفكر الفلسفي والميتافيزيقي بمعني الحقيقة. والذي يعنينا هنا هو مفهوم الصدق من خلال الإطار الذي تم تقديمه في النظريات المتعلقة بمجال المنطق وفلسفات العلم واللغة والعقل، وذلك ليكون مدخل لدراسة الصدق الواقعي فى فلسفة سانتيانا لنعرف الكيفية والمنهج الذي اتبعه فيلسوفنا فى الخروج من التقليد - أعني نظرية المعرفة والمنطق لكي يصوغ نظريته فى إطار الواقعية النقدية المعاصرة - وأعني به إطار الوجود أو الأنطولوجيا.

يعد مفهوم الصدق Truth من المفاهيم المهمة التى احتلت مكاناً بارزاً فى تاريخ الفكر

(*) الحقيقة فى اللغة ما أقر فى الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ما كان بضد ذلك، وحقيقة الشيء خالصه، وكنهه، ومحضه، وحقيقة الأمر يقين شأنه، وحقيقة الرجل ما يلزمه حفظه والدفاع عنه.
انظر - جميل صليبا: المعجم الفلسفى، المجلد الأول، مرجع سابق، ص485.

(2) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة،، ترجمة/ عادل مصطفى، مراجعة د/ يمنى طريف الخولي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005م، ص 46.

الإنسـانى على وجه العموم، والفكر الفلسـفى على وجه الخصوص. وهنـا يتبلور المعنى اللغوى لكلمة الصدق فى اللغتين العربية والإنجليزية مثلاً أن الصدق ضد الكذب، أو نقيض الكذب، وهو مطابقة الكلام للواقع بحسـب اعتقاد المتكلم[1]. وفي قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية يعرف الصدق بأنه «التطابق مع الواقعة، والإتفاق مع الواقع» Truth: conformity with fact, agreement with reality.،وأول مـا نلاحظـه على هذا المعنى اللغوى أنـه ضيق إلى حد كبير، وبالإضافة إلى ذلك لا يقدم شيئاً لتحديد معنى «المطابقة» و«الواقع»[2].

يرتبط الصدق بنظرية المعرفة، لأنه سمة أساسية فيها، فإذا كان هناك من يرى أن الصدق لا يقدم تعريفاً للمعرفة، فإن هناك على النقيض من يخبرنا بأن الصدق شرط ضرورى للمعرفة، لأن هناك التزاماً بضرورته متأصلاً فى استعمالنا لمصطلح معرفة (وما يتصل به من مصطلحات). وبالمثـل فى فكرتنا عن المعرفة، توجد ضرورة الصدق حيث ينظم اسـتعمالنا لكلمة معرفة وما يتصـل بها، حتى ولو لم نكن على دراية كاملـة بذلك، فتحليل المفهوم يبرز للنور ما هو ضمنى قابع فى ممارسـاتنا الفعلية التى كثيراً ما تتسـم بالعفوية التامـة[3]. وعليها يكون الصدق داخل بالفعل فى بناء مفهوم المعرفة.

وخـير من يمثـل اتجاه ربط الصدق بمفهـوم المعرفة هو صاحب الفلسـفة المثالية المطلقة، الفيلسـوف البريطانى «هربرت فرنسـيس برادلى»(*) Bradly (1846 - 1924) الذى قام بربط الصـدق بالمعرفـة فى هوية واحدة، بهدف أن المعرفة ليسـت فكراً صادقاً فحسـب، وإنما هى فكر تحقق فى واقع متناسب معه، فيقول «لا أدعى أن العقل يعمل مستقلاً بمفرده أو يتكلم وهو سـجين فى غرفة منعزلة، بل النقيض تماماً أن للعقل وظيفة نوعية هى ضرورة التحقيق في الواقع

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 723.

(2) صلاح إسماعيل: نظرية المعرفة المعاصرة، الدار المصرية السعودية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005، ص ص99، 100.

(3) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص 47.

(*) يمثل برادلى امتدادًا للفلسفة المثالية المطلقة التى وطد دعائمها الفيلسوف الألمانى هيجل (1770 - 1831) وإن كان ثمة اختلاف بينهما فى الموضوع والنظرية، ولكن الاتفاق كان فى المنهج والهدف، حيث جمع برادلى بين أسلوبين هما: عمق المثالية بصفة عامة، ورجاحة الفكر الإنجليزى المعاصر فى كافة اتجاهاته الفلسفية. انظر - محمد توفيق الضوى: نظرية الصدق عند برادلى، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2003م، ص3.

وامتـلاك حقوق معينة فيه، ومن ثم فأنا أصر على أننا إذا لم نأخذ هذا الفرض بجدية سـيكون التأمل مستحيلًا»[1].

بيد أن هناك جانباً عظيم الأهمية يعد بمثابة الركن الأساسى فى تحقيق الصدق وهو ضرورة أن يتحد الصدق بمعيارين أساسيين هما الاتساق coherence والشمول comprehensiveness. وعلى هذا النحو يصير الصدق بياناً لما هو صادق وتوثيقا للسعى الدءوب من أجل تأكيد صحة ما نقرره حينما نعتمد على الفكر الصحيح[2].

ولكـن...

ما النظريات التي حاولت تفسير مفهوم الصدق فى الفكر الفلسفى؟

يشهد تاريخ الفكر الفلسفى أن هناك العديد من الرؤى التى تناولت مفهوم الصدق Truth بالتحليل والمناقشـة، وعليها انقسمت نظريات الصدق إلي قسمين: نظريات الصدق التقليدية وهى التطابق والاتسـاق، والنظريات المعاصرة وهى كثيرة أهمهـا البراجماتية، وكذلك نظرية الإضافـة غير الضرورية، ونظرية إمكانية التحقق عند الوضعية المنطقية، والسـيمانطيقية أو الدلالية التي طورها الفريد تارسكي عن نظرية التطابق.

نظرية التطابق

لقـد انتـشرت نظريـة التطابـق correspondence theory في الصدق بشـكل واسـع بين الباحثين المحدثين فى الفكر الفلسـفى تحت تأثير فلسـفة برتراندرسـل - الذى يرى أن الصدق يحتوى في بعـض صوره على فكرة التطابق بين الإعتقاد والواقعة Belief and fact. وكانت هذه النظرية لرسل تقف ضد نظرية المثاليين المطلقة والتي ترى أن الصدق يتضمن الاتساق[3].

ومـؤدى هذه النظرية أن القضية الصادقة لابد أن تـأتى متطابقة مع الوقائع الخارجية التى

(1) المرجع السابق: ص14.

(2) المرجع السابق: ص 13.

(3) A. N. Prior: Correspondence Theory of Truth, in the Encyclopedia of Philosophy, Vol 11, PP.223, 224.

تتحدث عنها هذه القضية، ومعنى ذلك أن معيار الصدق هو تطابق الفكرة أو الاعتقاد مع وقائع العالم الفعلى. فلو قال قائل «الباب مفتوح» لكان صدقه يتوقف على الوجود الفعلى لهذا الباب الذى يتحدث عنه ويكون على حالة معينة، تلك التى نصفها بأنها تدل على أن الباب مفتوح وإذا لم تكن هناك هذه الواقعة كان القول كاذباً[1].

ومعنى ذلك، أن لصدق الخبر فى هذه النظرية شرطين: أحدهما مطابقته للواقع، والآخر مطابقته لاعتقاد المتكلم. فإذا كان الكلام مطابقاً للواقع، ولم يكن مطابقاً لإعتقاد المتكلم، أو كان مطابقاً لإعتقاد المتكلم، ولم يكن مطابقاً للواقع، لم يكن تام الصدق[2].

والصدق التام إذن هو المطابقة للواقع والاعتقاد معاً، فإن انعدام واحد من هذين الشرطين لم يكن الصدق تاماً[3]. فالذى يحدد التطابق أو التناظر في هذه النظرية هى القضية التى تقول «إن عبارة ما تكون صادقة إذا كانت متناظرة مع الواقع فقط»[4].

ونستنتج من ذلك أن الحديث عن التطابق يتضمن طرفين (عبارة، واقعة) يدخل ضمن مراحل الشك Doubt. أى أن موقف الفيلسوف منها لا يؤكد وجودها لأنها لا تخضع للتأكيد والتحقيق الخارجي. حيث يبدو أن هناك الكثير من الأشياء التى يطلق عليها الناس اسم حقائق، ولكن من الممكن أن تكون مجرد مسلمات presupposition أو مصادرات postutates أو ادعاءات ليس لها من سبيل إلى نور الحقيقة[5].

ومن الأدلة المؤيدة لطرفى التطابق وهما (العبارة، الواقعة) أن تاريخ الفكر الفلسفى يشهد بأن كلمة التطابق قد استخدمت للدلالة على العلاقة بين الفكر والواقع، كما أنها تتضمن صدق الفكر، وهى تظهر بوضوح فى العصور الوسطى الأوربية عند «توما الإكوينى». الذى

(1) محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،2004، ص57.

(2) جميل صليبا: المعجم الفلسفى، الجزء الأول، مرجع سابق، ص723.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(4) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص52.

(5) محمد حسين الشامى: الحقيقة فى فكر وليم جيمس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق - فرع بنها، 2002م، ص ص 15،16.

استخدمها مرة واحدة على الأقل فى كتاب له يحمل اسم «التطابق»Correspondentia، ومن قبله استخدمها «اسحق الاسرائيلى» Isaac Israeli فى القرن التاسع، وكان «اسحق الاسرائيلى» يهودياً من أتباع الافلاطونية المحدثة»[1].

ثم جاءت فى القرن العشرين على وجه الخصوص مناقشة مثمرة لنظرية التطابق فى سلسلة المحاضرات التي ألقاها «جورج إدوارد مور» فى عامى (1911 - 1912) حيث رأى مور أن الصدق والكذب يبدوان لأول وهلة كصفات للقضايا propositions، ولا يستخدم مور هنا كلمة القضية ليشير بها إلى معنى الجملة الإرشادية، ولكن ليعنى بها «المصادرة» axioma ثم عدل مور عنها، وعاد يتحدث عن الوقائع لا عن القضايا[2].

لذا تعد نظرية التطابق هذه من أقدم نظريات الصدق وأكثرها شهرة وأقربها إلى الموقف الطبيعى[3]. كما تقدمت هذه النظرية كثيراً فى الفلسفة المعاصرة على يد الفلاسفة التحليليين أمثال «رسل» و«رامزى» Ramsey و«فتجنشتين» wittgenstein، وكذلك عند «ألفريد تارسكى» فى النظرية السيمانطيقية Tarski`s Semantic Theory»[4].

نظرية الاتساق

تعتبر نظرية الاتساق Coherence theory فى الصدق إحدى نظريات الصدق التقليدية، والتى تضم تحت لوائها نخبة عظيمة من فلاسفة المذهب العقلى المؤيدين للميتافيزيقا أمثال ليبنتز، اسبينوزا، هيجل، برادلى[5].

ومؤدى هذه النظرية أن القضية تكون صحيحة إذا ما جاءت متسقة مع الحقائق التى سبق أن سلمنا بها، والقضايا التى قبلناها من قبل وسلمنا بصحتها. فلو قلت عبارة غير متسقة مع ما سلمت به كانت كاذبة، و إذا جاءت متسقة مع هذا الرأى الذى قبلته وسلمت به كانت

(1) A. N. Prior:Correspondence Theory of Truth, op. cit, P. 224.

(2) Ibid: p.224.

(3) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص52.

(4) A. N. prior: Correspondence Theory of Truth, op. cit, ppp.226, 228,230

(5) Alan R. white: Coherence Theory of Truth, in, The Encyclopedia of philosophy , Vol, I, p.130.

صادقة. وخير مثال لهذا النوع من الصدق هو ما نجده فى الرياضيات والمنطق. إلا أن الصدق هنا لا يعبر عن صدق واقعي بالضرورة، لأن كل ما يمكن أن يكون لدينا مجرد اتساق منطقى لا تربطة علاقة ضرورية بالواقع وبالعالم الموضوعى. ولذلك فإن هذا المعيار لا يقدم لنا شيئاً عن طبيعة الحقيقة أو القضية الصادقة[1].

ففي هندسة إقليدس مثلاً نجد نسقاً مستمداً بالاستنباط Deduction خطوة فخطوة من البديهيات Axioms والمصادرات postulates الأصلية، وما أن تؤخذ هذه البديهات والمسلمات presupposition على أنها صحيحة حتي يلزم عنها بقية النسق system منطقياً وعلى نحو يكون محتوماً. ففى هذه الحالة ننتقل فى سلسلة لا تنقطع قوامها استدلالاً غاية فى الدقة، من البديهيات الأصلية إلي عبارة «وهو المطلوب إثباته»، التى يختم بها البرهان على النظرية الهندسية، وبالوصول إلي النتيجة تكون لدينا سلسلة تامة التكامل من التفكير المنطقى، تترابط بدورها مع نسق كامل من الاستدلال Inference[2].

فى مثل هذه الأنواع من التفكير الاستنباطى، يكون من الواضح أن الصدق والبطلان يتحددان تبعا لكون القضية المطلوب بحثها تنسجم مع النسق الذى يفترض أنها تكون جزءًا منه، وهنا يصبح الاتساق، أو الترابط هو المعيار الوحيد للصدق: فالعبارة لا تكون باطلة إلا إذا لم تتكامل مع مجموع معرفتنا أو اعتقادنا[3]. وهنا يتوقف الصدق على دعامتين الأولى: العلاقات الداخلية ومدى اتساقها مع بعضها البعض، والثانية: درجات الصدق. لذلك قبل برادلى الاتساق بوصفة معياراً للصدق، فيقرر فى كتابه» مقالات فى الصدق والحقيقة» أن المعيار الذى ينبغى أن يطبق هو المعيار الخاص بالنسق، فأعلن صراحة أن هذا المعيار يعمل على نحو مقنع ومرضى، ولا يوجد بديل له يعمل بالكفاءة نفسها، ويبين هذا فى قوله «إن المعيار الذى أدافع عنه هو الانساق»[4].

(1) محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص59.

(2) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة / فؤاد ذكريا - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - القاهرة 1975م، ص159.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(4) محمد توفيق الضوى: نظرية الصدق عند برادلى، مرجع سابق، ص 17.

ولذلك كان لابد للترابط أو الاتساق أن يتضمن الآتى:

أ - ألا تكون إحدى قضايا النسقsystem كاذبة وباقى القضايا صادقة.

ب - أن يتحقق بين قضايا النسق الواحد لزوم منطقى.

ج - ألا يكون في قضايا النسق قضايا منعزلة عن بعضها.

د - أنـه لكى يصدر حكماً بالصدق أو بالكذب على عبـارات أو أحكام محددة، فإنه يجب أن يكـون هـذا الحكم متسـقاً مع ما جاء بـه أنصار الوضعيـة المنطقيـة Logical positivism supporters، كما أنه يجب أن يكون مقبولاً لدى أصحاب الفلسـفة المعاصرة The Scientists of the contemporary culture[1].

وعلى الجانب الآخر، يصر الميتافيزيقيون المؤيدون لنظرية الاتساق على أنه من الصعوبة أن نطلـق عـلى الحكم صفة الصـدق إلا إذا كان يلائـم حقيقة كونية أو حقيقـة واقعية والتى تكون هى نفسها نسقاً جزئياً فى إطار النسق الكلى[2].

وفى حقيقة الأمر، أن نظرية الاتسـاق لم تحظَ بالقبول العريض الذى حظيت به نظرية التناظر أو التطابق، رغم أنها لم تعدم مؤيدين لها من الفلاسـفة البازين[*]. ومجمل القول فيها «تكون العبارة صادقة إذا كانت متسقة مع جميع العبارات الصادقة»[3].

---

(1) Allan R. white: coherence Theory of Truth. op. cit, p. 130.

(2) Ibid: p. 130.

(*) الفلسفة تنقسم بشكل بارز إلى تيارين أساسيين متقابلين، فضلاً عن التجاوز والتلاقح بينهما، هما تيار المثالية الذى يرى أسبقية الفكر على الوجود، وتيار التجريبية الذى يرى أسبقية الوجود أو الوقائع على الفكر. ومعيار الاتساق أو الترابط فى تفسير طبيعة الصدق أكثر تمثيلاً للتيار المثالى، ومعيار التناظر أو التطابق أكثر تمثيلاً للتيار التجريبي، مع الاتساق لا يتوقف الصدق على شيء خارج الذهن، ولا يحتاج إلا لقوانين المنطق، لذا يمكن أن تمثل القضية الصادقة جزء من النظام المتكامل الذى هو الحقيقة بألف ولام العهد، إذ لا يبالى هذا المعيار بالواقع ومتغيراته لذا كان أقرب إلى التيار المثالي.
أما معيار التناظر أو التطابق، فيجعل من الصدق تناظراً مع واقعه فى العالم التجريبي، لذا كان ضرورياً للإبستمولوجيا التجريبية، وهو أكثر المعايير فعالية، ويكاد يكون الإجابة الفلسفية الرسمية عن السؤال: ما هو الصدق؟ مادام يعطى تمثيلاً كافياً للمعرفة التجريبية وللحوار الدائم بين العقل والواقع.
انظر - د/ يمنى طريف الخولى: مراجعتها لكتاب وليم جيمس إيرل، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة/ عادل مصطفى، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005م، هامش ص ص 54، 55.

(3) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص ص 54، 55.

وخلاصة القول، يرى الباحث أنه إذا كانت نظرية التطابق أو التناظر تهتم بالوقائع، فإن نظرية الاتساق تهتم بلغة التجريد العقلي، ولكن إن كانت الأولى تعنى بالصدق الواقعي، فالثانية تهتم بالصدق الصوري الذي يشمل حقيقة النسق الفلسفي عن طريق المسلمات وتوافر الشروط المنطقية الصرفة وهذا ما أدى إلي ظهور نظريات أخرى.

النظرية الدلالية Semantic theory

لتحديد العبارة الصادقة يجب أن نتعرف على اسهامات الفيلسوف والمنطقي البولندي ألفرد تارسكي في أوائل الثلاثينات من هذا القرن في تطور علم المنطق، ذلك عندما أسس المنهج السميانطيقي أو منهج دلالات الألفاظ اللغوية semantics لسد الفراغات التي أوجدها اتجاه «المابعد الرياضي» أو «الميتاماتيماتيك» لدى «هلبرت». وتعاون مع تارسكي كل من «أسكوليم» و«جودل» و« تشيرش». وتناقش النظرية العلاقة بين التعبيرات والألفاظ سواء أكانت كلمات أم جملاً وبين الأشياء والموضوعات التي تشير إليها، وتسمى بالفترة المعاصرة في تطور المنطق الرمزي[1].

لقد وضع تارسكي نظريته بغية التغلب على المفارقات الدلالية semantic paradoxes التي يثيرها الكلام عن الصدق في اللغات الطبيعية، وأبرز هذه المفارقات مفارقة الكذاب Liar paradox[2].

ولا يقدم تارسكي تعريفاً عاماً للصدق كما هو الحال في النظريات الأخرى، وإنما يرى أن التعريف المقبول للصدق لابد من أن يستوفي شرطين: الأول أن يكون التعريف كافياً مادياً، والثاني أن يكون صحيحاً صورياً[3].

وحسبنا أن نقول بإيجاز إن تارسكي يعرف الصدق في حدود العلاقة الدلالية «للاستيفاء» وهي علاقة بين دالة الجملة والأشياء غير اللغوية التي تستوفيها. وتبنى نظرية تارسكي

(1) أ. هيبسون، د. ج. أوكونر: مقدمة في المنطق الرمزي، ترجمة د / عبد الفتاح الديدي، دار المعارف، القاهرة، 1971 م، مقدمة الترجمة العربية ص13.

(2) صلاح إسماعيل: نظرية المعرفة المعاصرة، مرجع سابق، ص124.

(3) المرجع السابق: ص125.

مجموعـة من الفلاسـفة مثـل كارل بوبر ودونالد ديفيدسـون، وطبقها الأخـير على اللغات الإنسانية[1].

النظرية البراجماتية

لقد قدم المبدأ البراجماتى اتجاهات جديدة تماماً للبحث الفلسـفى، فهو يبعد بنا عن التأمل الميتافيزيقـى، إذ يحدد صدق الاعتقـاد بنتائجه العملية التجريبية[2]. ففـى البحث الذى نشره تشـارلز سـاندرس بيرس عام (1878) بعنـوان « كيف نجعـل أفكارنا واضحة» فقـد زاد هذه القاعـدة توضيحاً فقـال: «إننا لا نعرف على وجـه التحقيق ما هى الكهربـاء فى حد ذاتها، أى أن فكرتنـا عن الكهربـاء غامضة، ولكن هذا الغموض يزول إذا وجهنـا نظرنا إلى ما تؤديه لنا الكهربـاء أو إلى ما تحققه من أغراض عملية...المهم أن معنى الكهرباء يتردد بالنظر إلى آثارها التى نلمسها في تجربتنا اليومية. والأمر على هذا النحو فيما يتعلق بمعظم الأفكار»[3].

ومن هنا فقد عرف «بيرس» الفكرة بأنها مجال الفعل plan of action.. وكان هذا التعريف الجديد للفكرة هو جوهر الانقلاب الذى أحدثته الفلسفة البراجماتية في الفكر المعاصر[4].

أما بالنسـبة لوليم جيمس فقـد بدأ نظريته فى الصدق بتعريفـه لكلمة «الصدق» فيقول: «الصدق علاقة بين شيئين: فكرة، وواقع خارج على الفكرة. ولهذه العلاقة أساس هو الأساس التجريبى الحسى لا المطلق المجرد، ونعنى بذلك أنه يمكننا تعريف هذه العلاقة تعريفاً تجريبياً خالصاً ومن ثم وصفها وصفاً محدداً»[5]. كما يقول أيضاً أن «يعنى الصدق فى الأفكار مطابقتها للواقع ويعنى الخطأ فيها عدم مطابقتها له»[6].

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص60.

(3) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة، 2004م، ص188.

(4) فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفى المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولي، 1993م، ص99.

(5) محمود فهمى زيدان: وليم جيمس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2005م، ص 56.

(6) المرجع السابق: ص56.

وقد شـارك «جون ديوى» زميله «بيرس» و«جيمـس» في المبدأ العام للبراجماتية، وهو أن صحـة الفكرة تقاس بمقدار مـا يترتب عليها من فائدة وما الأفـكار إلا مجرد «خطط للعمل». ولكـن ما قد يميزه عنهما هو أنه ربط الحقيقة «بالبحث» إنه يقرر أن العلاقة بينهما هى علاقة « الحـل» لـ «المشـكلة « فـما يؤدى إلى حل للمشـكلة التى تطلبت البحث فهـو «حقيقى»[1]. كـما أن المنطـق عند ديوي يمثل نظرية فى البحث, وهذه النظرية تكشـف كيفية عمل الفكر ليـس بالطريقة المجردة أو الصورية الشـائعة فى المنطق القديم أو الحديث، و إنما عمل الفكر بطريقـة أداتية فى بحوث العلم النافع وفى حل مشـكلات الحياة اليومية. والأفكار القادرة على حل المشكلات العلمية والعادية هى أفكار صادقة[2].

وعليها فإن البراجماتيين فى ربطهم بين صدق الفكرة وبين النتائج التى تحققها فى حياة الإنسـان العملية قد شـد الأعناق وجـذب الأنظار «مما كان» و «مما هـو كائن» إلى «ما سـوف يكون»، أى أنهم ركزوا على الصدق المسـتقبلى للفكرة واشترطوا أن يكون معيار الصـدق هـو النتائج التى تتحقق فى الواقـع الملموس. فلم يعد القـول أو الاعتقاد حقا فى ذاته - من وجهة نظرهم - بل أصبحت حقيقته مرهونة بما يحقق من منفعة عملية فى حياة النـاس سـواء كانت منفعـة فى مجال الزراعـة أو الصناعة أو التجارة، بـل فى أى مجال من مجالات الحياة[3].

وبناء على ذلك تقدم البراجماتية مقياساً لتقييم الأفكار والفصل بين كل من الحق والباطل، وهو مقدرة الفكرة على إنجاز أغراض الإنسـان فى حياته العملية. فإن تضاربت هذه الأفكار مـع بعضها كان الأحق والأصدق هو النافع، ولذلك تؤمـن البراجماتية بالنجاح العملى بتحقيق النفع للمنقب عن الحقيقة»[4].

(1) محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984 م، ص69.

(2) صلاح إسماعيل: نظرية المعرفة المعاصرة، مرجع سابق، ص133.

(3) مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص189.

(4) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، مرجع سابق، ص164.

نظرية إمكانية التحقق عند الوضعية المنطقية

The Theory of verification in the logical Positivism

يمكـن القول أن أول من صاغ «مبدأ إمكانية التحقق من المعنى»، بوضوح هو «وايزمان» فى كتابـه «التحليـل المنطقى لتصور الإمكانية» عام (1930) مفـاده أن معنى القضية يكمن في منهـج التحقق منها[1]. حيث يسـتخدم هـذا المبدأ للتأكد من صدق أية جملـة تقال عن العلم، ويعـنى أن الجملة لكى تكون ذات معنى ينبغى أن تصف الواقـع وتقبل إما التحقيق المباشر من صدقها بالتجربة والرجوع إلى شهادة الحواس، وإما التحقيق غير المباشر بإجراء عمليات الرد المنطقى عليها لتحويلها إلى جملة تقبل التحقيق المباشر[2]. وهو المبدأ نفسـه الذى اشـتهرت به المدرسـة الوضعية المنطقية، حيـث يقولون أيضاً أن معنى القضية يقـوم في منهج التحقق منها، أو فى قول آخر ولكنه يعود إلى المعنى نفسـه: «إن للجملة معنى في ظرف وظرف واحد، هو أن يكـون من الممكن التحقق منها» ذلك أن الوضعيين الجدد يرون أننا لا نعرف معنى جملة ما إلا حينـما نعـرف إن كانت صادقة أو خاطئة، ومعني هذا أن طريقـة التحقق من المعني ينبغى أن تتوافر فى الوقت نفسه مع المعنى والعكس بالعكس (أى أنه لا طريقة للتحقق من المعنى إلا مع الشيء). وهو يعنى على حسـب تعبير «ليبنتر» الفيلسوف الألمانى فى «اللامتميزات» إن طريقة التحقق والمعنى هما واحد ونفس الشيء[3].

ولذلـك فإن معيار إمكانيـة التحقق principle of verification في صورته الأصلية يشـبه إلى حـد بعيـد المعيـار البرجماتى للمعـنى عند «بـيرس» وكان هذا المبـدأ فى التحقق يسـتهدف اسـتبعاد العبارات التى لا يمكن أن نتصور منطقياً أن يكون هناك بشـأنها «شاهد» يؤيدها أو يدحضها[4].

(1) ألفريد جولس آير: الفلسفة فى القرن العشرين، ترجمة ودراسة / بهاء درويش، مراجعة / إمام عبد الفتاح إمام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2006، ص31.

(2) محمد فتحى عبدالله: معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الثانية، 2009، ص48.

(3) إ. م. بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة فى أوروبا، مرجع سابق، ص 99.

(4) محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص 202.

وعلى سبيل المثال - إذا رجعنا إلى القضية القائلة بأن «النفس خالدة» لم نجد صفة الخلود مما نستطيع التحقق منه فى التجربة الحسية، بل إننا لا نلتقى فى عالم الخبرة الحسية بكائن يسمى «النفس» ومن هنا ذهب المناطقة الوضعيون إلى أن الميتافيزيقا مجرد خرافة وأن قضاياها خالية من المعنى[1].

وعلى ذلك وضع «كارناب» تصوراً جديداً لمعيار التحقق من المعنى، يتلخص فى الآتى:

1- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأييد تأييداً تاماً، وهذا هو مبدأ التأييد التام.

2- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقق تحقيقاً تاماً، وهذا هو مبدأ التحقق التام.

3- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقق، وهذا هو مبدأ التحقق.

4- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأييد، وهذا هو مبدأ التأييد. وفى كل هذه الأحوال كما يرى «كارناب» يجب أن تكون الصفات متعلقة بما هو قابل للملاحظة[2].

وعلى أساس مبدأ التحقق - يضرب آير لذلك مثلاً فيقول: إن العبارة القائلة «هناك جبال فى الجانب الآخر من القمر» عبارة ذات معنى، على الرغم من أنه قد لا تكون تحت أيدينا في الوقت الحاضر السبل المواتية للتحقق من صحة أو كذب تلك القضية. والسبب فى ذلك أنه ليس ما يمنع من أن تكون هذه العبارة قابلة للتحقق مبدئياً، مادام فى وسعنا أن نتصور بناء سفينة فضاء تخترق الفراغ على مدى واسع وبالسرعة الكافية. أما إذا قلنا «أن الله موجود» بمعنى أن ثمة كائناً فائقاً للطبيعة هو الذى أوجد العالم وخلق الكائنات فإننا عندئذ إنما نتفوه بعبارة فارغة من كل معنى، لأننا نقرر قضية لا تحتمل الصدق أو الكذب، ولا تقبل التحقق على أى نحو ما من الأنحاء، ولهذا فإن قولنا بأن «الله موجود» لن يكون سوى لغو فارغ لا معنى له، وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر العبارات الميتافيزيقية[3].

(1) يحيى هويدى: مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة العاشرة، القاهرة، 2001م، ص 90.

(2) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الثانى، مرجع سابق، ص 252.

(3) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، 1971م، ص ص 147، 148.

ومن ثم فإن الفلسفة عند آير لا يمكنها أن تتجاوز نطاق المحسوس ابتغاء معرفة واقع آخر يتجاوز نطاق العلم والإدراك الفطرى، وبالتالى فإن قضاياها كما يقول آير أقرب إلى قضايا الشعر العاطفية، وبذلك تقترب نظرتها من الأسطورة إلى حد كبير، فما تقدمه لنا الميتافيزيقا فى نهاية المطاف لا يختلف كثيرا عما تقدمه الأساطير أو الأعمال الفنية، فهى تكتفى بالتعبير عن دائرة الإنفعالات أو العواطف، وإن حاولت ذلك من خلال صيغة عقلية[1].

والحق أن النزعة الوضعية فى نظرتها إلى علاقة الفلسفة بالعلم قد نظرت إلى هذه العلاقة من زاوية واحدة، وهى زاوية الانحياز الكامل للعلم على حساب الفلسفة، ومن ثم تشّكلت وتلونت نظرتها للفلسفة فى ضوء هذه الزاوية وحدها، ومن هنا انطوت نظرتها على تناقضات عديدة، فهى لم تستطع أن تتخلص كلية من تأثير النظرة الفلسفية على الرغم من هجومها عليها[2]. فقد وصل آير من خلال نقده للنظرة التقليدية للفلسفة إلى تحديد وظيفة محددة ينبغى أن تلتزم بها الفلسفة، ألا وهى وظيفة التحليل المنطقى للمفاهيم والرموز العلمية، ومن ثم فالفلسفة هى نشاط تحليلى فى المقام الأول[3].

ومن هنا أدى مبدأ إمكانية التحقق إلى فقدان التجريبيين المنطقيين شعبيتهم بين أقرانهم من الفلاسفة، ذلك لأنه إذا قال لك خصمك فى الفلسفة بأن عباراتك باطلة لكان فى ذلك ما يثير أعصابك، أما إذا قال لك إنها عبارات لا معنى لها، وإنها فى حقيقتها لغو، لكان ذلك أسوأ من إثارة الأعصاب[4].

نظرية الإضافة غير الضرورية

تعتبر نظرية الإضافة غير الضرورية أحدث النظريات التى تناولت مشكلة الصدق، وهى نظرية جديدة في مجال البحث، لم ترسخ أفكارها بعد كنظرية فى عالم الفلسفة، وتفيد باختصار:

(1) محمد مجدى الجزيرى: الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2002، ص224.

(2) المرجع السابق: ص208.

(3) المرجع السابق: ص224.

(4) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، مرجع سابق، ص 244.

أن الكلـمات والعبارات «صادق» و« كاذب» و«من الصدق أن....» و«من الكذب أن....» التى توضع فى مقدمة العبارات، أو فى نهايتها هى صفات وتعبيرات إضافية لا ضرورة لها، حيث أنها لا تصف قضايا بقدر ما توجه الإنتباه إلى تأكيد ما تقول، أو التسـليم به أو دفع الشـك عنه.

ومن بين الرواد الذين أسهموا فى ظهور نظرية الإضافة غير الضرورية الفيلسوف الألمانى «جوتلوب فريجه» Gottlob frege (1848 - 1925) والفيلسـوف الرياضى الإنجليزى المعاصر « فرانـك رامـزى» (1903 - 1930)، واشـتهر بها الفيلسـوف الأمريكى «ويـلارد فان أورمان كواين»W. V. Quine (1908 - 2000)[1].

وتسـمى نظرية الإضافـة غير الضروريـة بنظرية اللانظريـة أحياناً، كـما يطلق عليها نظريـة الاختفاء[*] فى الصدق. وتسـمى أيضاً بطريقة مضللـة إلى حد ما نظرية نزع علامات التنصيـص فى الصدق[**] بمعنى أن العبارة المحصورة بين فواصل التنصيص حين تأتى مشـفوعة بكلمة صادقة هى مكافئة تماماً للعبارة الأصلية وحدها وبدون علامات تنصيص. مثال ذلك.

«إنها تمطر ثلجاً» صادقة

تكافئ

تمطر ثلجاً[2].

(1) صلاح إسماعيل: نظرية المعرفة المعاصرة، مرجع سابق، ص101.

(*) يطلق اسم نظرية الإختفاء Disappearance theory أو التلاشي أو الزوال أو التوارى على أية نظرية توهم بأنها تقدم بياناً وصفياً وتفسيرياً لظاهرة ما، بينما هى تفضى فى حقيقة الأمر إلى أن هذه النظرية لا وجود لها.

(**) تعتبر نظرية «نزع علامات التنصيص» Disauootational view af Thth (أو نزع علامات الإقتباس أو الاستشهاد) صيغة من صيغ نظرية «الفائض اللفظي في الصدق» Redundansy Theory التى قال بها فريجة ورامزي. ومفادها أن عبارة «أنه من الصدق أن ق» ليست أكثر ولا أقل من ق وحدها. أو بتعبير آخر «إن ق صادقة» لا تزيد شيئاً على ق. ذلك أن المحمول صادقة لا مفاد له ولا يعبر عن مفهوم عميق أو تفسيرى يستحق أن نفرد له مبحثاً فلسفيا. أى أنه لا يعدو أن يكون فائضاً لفظياً. من هنا سميت النظرية « نظرية الفائض اللفظى».

انظر - وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص ص50،51.

(2) المرجع السابق: ص ص50، 51.

وعلى هذا الأســاس الذى تــم تقديمه تحاول كافة نظريات الصــدق تقديم إجابات مقنعة لشتى الأسئلة المتعلقة بالمنطق ونظرية المعرفة وغيرها، كما استخدمت كلمة نظرية هنا بمعنى قريــب من معناها فى العلوم الطبيعية، فالنظرية هــى مجموعة فروض تجمعها روابط منطقية. والفرض صيغة، أو عبارة نظرية يسعى مع غيره من الفروض إلى تفسير ظاهرة طبيعية، أو مسألة مــن المســائل العقلية. وهذا يعنى أن المهمة الأساســية للنظرية بصفة عامــة هى أن تكون أداة للتفســير، ومهمة أية نظرية فى الصدق هى تفسير مفهوم الصدق تفسيرًا مقنعاً، وبيان علاقاته مع غيره من المفاهيم فى نظرية المعرفة[1]. وهنا يدور التســاؤل... إذا كان الفلاســفة قد نظروا إلى الصــدق باعتباره شرطًا ضروريًا للمعرفة، ولم يحاول أحد منهم إثبات أن المعرفة ممكنة من غير الصــدق، بمعنى أنه إذا كانت نظريات الصدق قد صيغت داخل حدود نظرية المعرفة، أو المنطق، أو فلسفة العلم كما تم عرضها، فكيف حلل سانتيانا مفهوم الصدق؟ وكيف خرج من خلال هذه النظريات الإبستمولوجية إلى إطارعالم الوجود، او نظرية الأنطولوجيا؟.

(1) صلاح إسماعيل: نظرية المعرفة المعاصرة، مرجع سابق، ص89.

الفصل الثالث

سانتيانا والنظرية الواقعية في الصدق

الفصل الثالث

سانتيانا والنظرية الواقعية في الصدق

في البدء لابد أن أشير إلى أن نظرية سانتيانا في الصدق لم تنشأ من فراغ فكري، حيث جاءت نظريته مشوبة باتجاهه العام في فلسفته ألا وهو الاتجاه الطبيعي، والذي تطور فيما بعد على يد سانتيانا ومجموعة من الفلاسفة المعاصرين وعرف باسم الواقعية النقدية(*) Critical Realism وعلى هذا الأساس الواقعي تنعت نظرية سانتيانا في الصدق بأنها نظرية واقعية، خرج بها سانتيانا من إطارها المألوف ألا وهو المنطق ونظرية المعرفة، ليصوغها في إطار الوجود أو الأنطولوجيا متأثرا في ذلك بالإتجاه الواقعي النقدي الذي انضم إليه مؤخرا، وذلك لا ينفي أن

(*) الواقعية النقدية Critical Realism اتجاه فلسفي معاصر، ظهر عام(1916) من سبعة فلاسفة انشقوا على المذهب الواقعي الجديد آنذاك، وكونوا مذهباً جديداً عرف باسم الواقعية النقدية، وقد انضم إليهم سانتيانا، وقاموا جميعاً بعمل واحد عبروا فيه عن أفكارهم تحت عنوان «مقالات فى الواقعية النقدية» Essays in Critical Realism. وقد كانت مشكلة الإدراك الحسي بدء تفكيرهم، إلا أنهم رفضوا موقف الواقعية الجديدة فى ضم العارف والمعروف فى نمط واحد، وعادوا إلى الثنائية التى يتميز فيها المُدْرِك من الشيء المُدْرَك، مع القول بأن الشيء المعروف هو وجوده الخارجى، وأن معرفتى به هى التى تؤدى إلى وجوده، ولكن وجوده مستقل عن هذه المعرفة كل الاستقلال، وهؤلاء الفلاسفة هم:

(1) Durant Darke»Vassar»,
(2) - A. O. Lovejoy «John Hopkins»,
(3) - J. B. Pratt»Williams»,
(4) - A.K.Rogers»Yale»,
(5) - G. Santayana»Harvard»
(6) - R. W.Sellars «Michigan»
(7) - C. A. Stronge «Columbia»

انظر - نجاح محسن: مدخل إلى الفلسفة، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص218.

تكون نظرية سانتيانا في الصدق مشوبة بمثالية متعالية قوية، حيث استطاع فيها فيلسوفنا الجمع بين الواقعية والمثالية، ولذلك ينعت بأنه فيلسوف واقعي نقدي[1].

وعلى هذه الجدلية التي تم تقديمها تتبادر الإشكاليات إلى الذهن بغرض الوقوف على كنه نظرية سانتيانا الواقعية في الصدق، وتكون الإشكاليات المطروحة من قبيل:

ما الصدق truth الذي يقصده سانتيانا في فلسفته؟ وما المنهج الذي اتبعه في تبرير نظريته؟ وكيف جاءت نظريته متضمنة ذلك المنهج؟ وكيف خالف بنظريته في الصدق النظريات التقليدية والنظريات المألوفة في الفكر الفلسفي والمنطقي؟ وهل كل ما في ذهن الإنسان من أفكار يقابله وجود حقيقي في العالم الخارجي؟

نبدأ بالتساؤل الأخير حتى نستطيع الوصول من خلاله إلي الإشكاليات الأخرى، فيرى سانتيانا أن الحالات التى تكون فيها الأفكار بغير مقابل خارجى لا شك فى قيامها، ولكن ليس فينا من لا يفرق بين هاتين الحالتين: حالة الفكرة التى يقابلها فى الخارج شيء عينى، وحالة الفكرة التى لا يقابلها شيء، ولولا «الإيمان الحيوانى» لما استطاع الإنسان أن يفرق بين هاتين الحالتين عندما تكون الفكرتان داخل الرأس على حد سواء، وبفضل هذا الإيمان الحيوانى ترانا نفرق بين وجودين: وجود عينى يقابل الأفكار ذوات المسميات الخارجية، ووجود ذهنى لمدلولات الأفكار الأخرى التى نعرف أن ليس لها مسميات خارجية[2].

وبناءً على ما سبق ينتهى بنا التحليل إلى وجود عالمين: عالم الممكنات (وهو الذى أطلق عليه سانتيانا عالم الجوهر أو الماهيات) وعالم المادة التي تمّكن بعض تلك الممكنات من الظهور الفعلى، لكن هذا الانتقال نفسه من عالم الإمكان إلى عالم الواقع فى الطبيعة المادية، يخلق لنا عالماً ثالثاً هو ما يسميه سانتيانا عالم الصدق Realm af Truth. وهو ذلك الجزء من عالم الماهيات «عالم الممكنات» - الذى خرج إلى عالم الواقع الفعلى، ولذلك كان «عالم الصدق» - هذا عالماً عرضياً كالوجود نفسه[3].

(1) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 581.
(2) د/ زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص ص 155، 156.
(3)زكي نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، مرجع سابق، ص 211.

ولتفسير ذلك، نجد أنه لم يكن هناك ضرورة عقلية تقتضى أن يخرج الصدق من عالم الممكنات هذا الجزء الذى خرج فعلاً دون سائر أجزاء الممكنات التى لم تخرج وظلت على حالها عالماً ممكناً، فالوجود كله عرضى، بمعنى أنه كان يجوز ألا يحدث وبالتالى يكون «الصدق» عرضياً - بمعنى أن ما قد تحقق فى عالم الواقع قد كان يجوز ألا يتحقق وأن يتحقق سواه من بقية الممكنات التى لم تقع، ولذلك فقد أخطأ الفلاسفة المثاليون جميعاً كما يرى سانتيانا حين ظنوا أن ثمة مبادئ عقلية قبلية ضرورية شاملة، صدقها محقق ويقينها ثابت، أخطئوا إذا ظنوا ذلك لأن الوجود كله بما فيه من عقول وما يترتب عليها من مبادئ الرياضة والمنطق - قد جاء عرضاً وقد كان يمكن ألا يجئ[1].

ولكن... ما الذي يعنيه الصدق في فلسفة سانتيانا الواقعية؟

يرى سانتيانا أن القارئ الفاحص لن يجد أي صعوبة في فهم المعنى المستخدم في كتاباته لتعريف كلمة الصدق، حيث إنه المعنى الذي تحمله الكلمة في المحادثات العادية، فهذه العبارات التي يقوم باقتراحها لا يمكن وصفها في رأيه أنها تصف المعنى الواضح لهذه الكلمة، ولكن استخدامها فقط يكون من أجل توضيح كلمة الصدق وتأكيدها في هذا الموضوع، حيث إن استخدامه لكلمة الصدق هنا كما يقول يختلف عن هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم خبراء في علم المنطق[2].

إن المعنى المحتمل للصدق عند سانتيانا هو عبارة عن مجموعة من القضايا الصادقة، أو العلم بالأشياء التى من شأنها التأكيد، كما أنه النظام المثالي الكامل للصفات والعلاقات التي يقوم رجل العلم بإثباتها أو محاولة إثباتها مستقبلاً[3]. حيث إن كلمة الصدق تعنى كل الأشياء التى يمكن رؤيتها تحت مسمى الخلود أو السرمدية eternity فكل رجل مفكر دائماً يفترض حقيقة الصدق الفعلى أو الصدق الواقعى، أو يفترض الصدق الذي لم يتم اكتشافه بشكل كبير، وهى الحالة التى يدعى فيها المفكر أنه ينقل جزء منها[4].

(1) المرجع السابق: ص 211.

(2) G. Santayana: Realms of Being , one volume Edition, With A New Introduction By the Author, Charles Scribner's sons, New York, 1942., p.401.

(3) Ibid: p.402.

(4) Ibid: p.402.

لقد أكد سانتيانا أن الصدق لانهائيDateless وأبدى Eternal، ولكنه ليس سرمدياً Timeless، لأنه عرضة للتغير حيث يتناول الوجود المتغير. فالصدق هو التاريخ المجمد Frozen history فإذا كان أفلاطون قد قال إن الزمن هو الصورة المتغيرة للخلود، فإننا نستطيع القول إن الخلود هو الصورة المركبة للزمن، ولكن الصدق أكثر من ذلك، لأنه بالإضافة إلى أنه يصف الأشياء فى علاقاتها الزمنية فهو يحتوى على كل شيء، حيث يحتوى على عالم الماهيات مضافاً إليه عالم الصدق[1]. وهذا ما أكده «جوزيف بلاو» Joseph L.Blau حيث رأى أن الصدق فى عوالم سانتيانا هو الجزء العملى فى عالم الماهية حيث تتكون منه هذه الماهيات، ويكون بالفعل فى الوجود. وهو ما أسماه سانتيانا باسم عالم الصدق[2].

لقد رأى سانتيانا أن الصدق ليس مجرد رأى، حتى إن كان هذا الرأى صحيحاً، لأنه بجانب التقييد في مجال الآراء الإنسانية لا يمكن الهروب منه، على الأقل حتى أن كانت معظم الآراء دقيقة وكاملة، بل ربما تعطى الأسبقية لبعض الحدود وتمتلك الاتجاه الوصفى فيها، وأن هذا الاتجاه المسحى قد يتغير أو يتبدل دون الوقوع في الخطأ، لذلك يعد الصدق هو الحقل الذي نأتى من خلاله بالآراء الصادقة للاتجاهات المختلفة، وليس لمجرد الرأى ذاته[3]. وذلك لأن الرأي لا يستطيع الوصول بسهولة إلى أهدافه بغض النظر عما إذا كان هذا الرأى معبرا عن حقيقة أو مجرد إفتراض، أو لكونه مؤكداً للموضوع الذى تم اختياره، فإن هذا الرأى لا يمكن اعتباره خطأ، لأنه لا يمكن أن يكون رأياً عن أى شيء[4]. كما أن هذه الآراء تكون صحيحة أو خاطئة إذا تم تكرارها، أو عندما تكون فى اتجاه مضاد للصدق الذى يعبر عن الحقائق التى يحتويها، من هنا فالصدق عبارة عن الحقائق التى تقدم وصفاً معيارياً مفهوماً لتلك الآراء[5].

أما الحقيقة كما يراها الفيلسوف محل الدراسة هى بالطبع الفكرة التى يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة، وذلك عندما تكون الفكرة لا تعنى تعريفاً ما عن صحة معلومة، ولكن

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 271.

(2) Joseph L. Blau: Men and Movements in American Philosophy, op. cit, P. 332.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 268.
See also, G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 403.

(4) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 402.

(5) Ibid: p. 403.

عندما تكـون الفكرة معبرة عن رأى ما، وكذلك معبرة عن العلاقة المجردة بين الفكرة وعنصر الصحة في أى رأى يمكن أن يكون صحيحا، وعلى أسـاس ذلك يمكن اعتبار هذا الرأى صحيحا ويمكن تحديده بسـهولة. وعلى ذلك يمكن القول بأن هذا الرأى يمكن أن يكون صادقًا إذا كان مـا يتحـدث عنه يكون عنصرا مـن أحد العناصر المكونـة لهذا الرأى. أى أن الحقيقة ليسـت مسألة تشابه أو اختلاف بين الحقيقة السلبية والموضوع غير المعلوم، ولكنها شكل من أشكال الهوية أو الذاتية Identity بين الواقع المؤثر والحقيقة الموجودة وجودا فعليا[1].

وتأكيدا لما سـبق يرى سـانتيانا أنه عند اسـتخدام الصدق كمعنى للحس المجرد الصحيح أو ككيفية تحتوى على الأحكام الصحيحة بشـكل تـام، فإن الكلمة الأخرى التى تعنى الواقع أو الحقيقـة يمكن اسـتخدامها لهذا الوصف المعيـارى لذلك الموضوع الـذى تنطبق عليه هذه الأحكام الصائبة، ولكن الواقع ليس وصفا لذاته بالنسبة لكلمة واقعيةReality إذا فهم معناها بأنها تعبر عن الوجود، فهى أيضا لا يمكن الإشـارة إليها بأنها عبارة عن وصف للوجود، ولكنها فقـط عبارة عن ماهية لـه، فالوقائعFacts دائما تكون عابرة أى قصـيرة المدى، وعندما تتلاشى هذه الوقائع فإن الذي يتبقى منها هو الماهية[2]. من هنا فإنه يوجد اختلاف واضح بين الصدق وأى حـدث آخـر، حيث أن الحدث يعـد فى حد ذاته حدثـا له تاريخ، وليـس تاريخ حدوث الموضوع حتى إن كان هذا الموضوع كائنا أو موجود وجودا فعليا، أو حتى لكونه معاصرا، أو مرتبطا بالموجودات الإنسـانية المطلعة بشـكل كبير على الأحداث التى وقعت في الماضى. ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن الصدق ليس له تاريخ، فالصدق هنا يكون متطابقًا مع ما يحدث فى الواقع، سواء كانت هذه الآراء التى تقدم عن الصدق تظهر قبل أو بعد وقوع الحدث الذي يتم وصفه من خلال الحقيقة[3].

إن أبدية الصدق عند سـانتيانا تكمن فى شمولها جميع الحقائق، ولكن هذه الحقائق ليست متشـابهة السرمدية. حيث إن الأشخاص المغرمين الذين يسـتخدمون عقولهم في التفكير عادة مـا يعرفون الصدق على أسـاس من معتقداتهـم الخاصة، أى أن الحقائـق الأبدية هى عبارة عن

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.402.

(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 267.
See also, G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.403.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 268.

معتقداتtents كان من المفترض أن تخص الأسلاف القدماء لبنى الإنسان، والتى يرفض هؤلاء الأسلاف التحلى بها[1].

بالطبع لا توجد معتقدات سرمدية كما يقول سانتيانا كما لا يمكن أن نعطى وجهات النظر الإنسانية الموجودة صفة الأبدية، حيث إن الأبدية هى صفة للماهية فقط، حتى ولو كانت جميع الأرواح التى فى السماء والأرض لها صفات مشتركة وجماعية فى أى عنصر من عناصر المذهب[2].

يرى سانتيانا أنه إذا لم يوجد هناك صدق مطلق وأبدى وشامل لكل الأحداث الواقعية، فإن وجهات النظر المأخوذة من وقت لآخر عن طريق الأفراد ربما تكون ذات طبيعة مطلقة، وربما تكون أيضا وجهات النظر هذه ليست لها صلة متصلة ببعضها البعض، ولا يوجد بينهما وجه للمقارنة من منطلق الصدق، وذلك لكون هذه الآراء بدون أى هدف أو موضوع تظهر من خلاله الماهية. ولهذا السبب فإننى أعطى اسما متميزا لهذه الشريحة المهمة من عالم الماهية واسميها عالم الصدق[3].

إن الصدق موجود بالتأكيد، وذلك إذا لم يكن هذا الوجود عبارة عن وسيلة أو صفة لهذا العالم الأبدى الذي يكون مملوءً بالمثاليات، ولكن الصدق يكون كريها وبغيضا بالنسبة للوجود الفيزيقى والعقلى، علاوة على ذلك ربما يتم مطابقة الصدق مع العقل عديم التأثير بشكل واضح، دون أن يكون لهذا العقل أى قدرة على الفعل اللهم إلا أنه يمتلك كل الصدق الموجود دون أن يكون له وجهة نظر فيه أو أى دفء حيوانى أو أن تكون له أى عملية إنتقالية، فالعقل والصدق عبارة عن تعبيرات لديها خلفيات استعارية ودلالات مختلفة، ولكن إذا لم يتواجد العقل فإن الصدق يستعير بعض المطابقات أو التماثلات حيث أن كل من العقل والصدق يستدعى ذلك المعيار المثالى الذى ينسبه العقل البشرى إليه، وأن هذه الوظيفة عبارة عن ماهيتهم المؤثرة حيث تؤكد ثباتهم السرمدى، كما أن هذه الخاصية تمنحهم بالتأكيد الواقعية الحقيقية والظاهرة[4].

(1) Ibid: p.268.

(2) Ibid: p.269.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.404.

(4) G. Santayana: Reason in Common Sense, vol I, in: the Life of Reason, Archibal constable, London, 1905, p.27.

يؤكد سانتيانا أن العادة tradition تمدنا بكثير من الحقائق والأحكام الضرورية، مما يجعل هذه الحقائق ثوابت لا تتغير مثل الحقيقة الرياضية 2+2=4 وأن الزمان والمكان ينقسمان إلى مالانهاية، وهذا يعنى أن لكل شيء سبباً وأن الله تعالى هو الحقيقة الوجودية لكل الكائنات، فهو موجود بالضرورة. كما أن العديد من هذه القضايا ربما تكون ضرورية، ويمكننا أن نتثبت من صدقها عن طريق ما تقدمه من تعريفات definitions لهذه الحدود، والذى يؤكد صدقها أيضا هو وقائع الطبيعة أى حقائقها، كما أن بعض هذه القضايا لابد أن تمتلك صدقا ماديا وضرورة منطقية، فالضرورة إذن هى أن صدق كل قضية ينبثق من قضية أخرى. لذلك فإن هذه النتيجة ربما تكون واضحة لأى إنسان يدرك أن طبيعة الوجود الأبدية أو ما يسميه سانتيانا بعالم الماهية، أنه مفهوم يسير فى حد ذاته، بل هو مفهوم حتمى إذا ما ركزنا اهتمامنا عليه[1]. أما الصدق فهو عبارة عن صورة وصفية للوجود، فإذا كان الوجود حتمياً contingent كان الصدق حتمياً أيضاً[2].

أما العالم الذى أجد نفسى فيه عالم غير عقلانى لا يمكن وصفه بالجنون، حيث إنه يحتفظ بالحركة فى طرق ثابتة ومستمرة بشكل أساسى، ولهذا السبب فإن الخبرة تتراكم وتعمل من خلال نطاقها المؤثر، فبالمقارنة به على الرغم من أن إصابتى بالجنون قد تكون محتملة، فعلى سبيل المثال لو أن الإنسان أصر على إيجاد سبب لهذا الوجود، وبدا هذا الوجود ثابتا لأصبت بدوامة جنونية في رأسى، وذلك لوجود حياة داخلية مرتكزة تعمل بداخلى، بالإضافة إلى اتصالى العضوى المألوف بالأشياء المادية.

إن الحياة الإنسانية مليئة بالصور الباقية على قيد الحياة، فقد تكون هذه الصور مصحوبة بتوقعات صحيحة أو خاطئة، بالإضافة إلى هذه التخيلات التى لا جدال فيها، وحتى أن أفكار الموضوعات المادية التى تعد غير ضرورية من الممكن أن تكون مهمة، مثلها فى ذلك مثل الرواية التى قد تكون مهمة ومثيرة، وذلك لكونها تثير بشكل درامي نفس العواطف التى تثيرها أحداث الحياة النشطة. ولكن إذا كانت هذه المثيرات أى الأفكار الشيقة الممتعة تتداخل مع أفعالنا أو بدت عبارة عن إدراكات، فإننا حينئذ نخدع ونحلم ونتحرك إلى الأمام حيث بيت الجنون[3].

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.407.

(2) Ibid: p.408.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 505.

أما المسألة الحسابية 2+2=4 مثلها فى ذلك مثل أى عملية حسابية أخرى، فهى عبارة عن معادلة تعمل على إيجاد علاقات ظاهرية معينة بين مصطلحات معينة، وأن جميع هذه العلاقات الحسابية تكون ذات أهمية عندما تعتمد على التعريفات أو الحدوسات التى تميز بين المصطلحات بعضها ببعض، والتى بدورها لا تكون ضرورية أو حتى ممكنة لعملية الاكتشاف أو العمل على إظهار العلاقات الضرورية للمصطلحات التى تم اختيارها فى الجوانب البشرية[1].

أنه على الرغم من كون الصدق فى حد ذاته المجال الوحيد للماهية، حيث إنه ينشأ عن حقيقة حتمية ومؤكدة، إلا أنه يكون محددا كما تكون الماهية محددة به، حيث يعمل الصدق فى حد ذاته على تأسيس انسجامات معينة تسيطر على عالم الفكر الذى برز بصورة أساسية من خلال الأحداث[2]. لذا كانت إمكانية اكتشاف الصدق، أو جزء من أجزائه غالباً ما تكون مشوبة بالصدق نفسه، كما لو كان الصدق يشبه الخطأ. فالنوعية الأخلاقية للفكرة أو الحكم عندما تنجح أو تخفق فى تقرير الواقع تعطى اهتماماً بهذه اللحظة المعنية، ولكن تكون الفكرة أو الحكم صائباً إذا كانت التقريرات صادقة وتكون كاذبة إذا كانت التقريرات متناقضة[3].

ومن دواعى سوء فهم الصدق أن نخلطه بالأحداث المادية events Material أو أن نخلطه بآرائنا الشخصية عن الأشياء، فالأحداث لا توصف بالصدق أو الكذب، بل أن القضايا هى التى يمكن وصفها بهذه الصفات، فالصدق عند سانتيانا ليس له مدلول مادى يدور حوله أو يشير إليه، والأحكام التي نصفها بالصدق أو الكذب هى قضايا واقعية لا نستطيع وصفها بهذه الصفات إلا فى إطار نسق صحيح من التمثلات Representations[4].

وعلى ذلك فإن الخبرة أو الفكرة يمكنهما أن يتضمنا الصدق، ولا نقول عنهم - الصدق والخبرة والفكر شىء واحد، بل إننا إذا لم نميز بينهم تمييزاً صحيحاً ما أمكننا وصف الوجود ذاته، فعلى سبيل المثال إذا قلنا إن ديفيد هيوم ولد عام (1711) فإن هذه القضية عن هيوم

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.408.

(2) Ibid: p.446.

(3) Ibid: pp.446.447.

(4) Guy w. Stroh: American philosophy from Edwards to Dewey, An introduction, van Nostrand Reinhold company, New York, 1968, p.228.

لا تصبح صادقة لأن هناك شـخصاً ما فكر فيها، بل إن عملية الفكر هنا سـاعدت على تحقيق مزيد من الصدق للقضية التى ذكرناها عن هيوم[1].

ولكن يعترض سانتيانا هنا على اعتبار الصدق مجرد فكرةidea حيث يراه مجرد حدث له تاريخ، كما أن مفهوم الفكرة من خلال السـياق الذي قدمه فيلسـوفنا مفهوما غامضا ومبهماambiguous حيث إنها تعنى الماهية أو قد تكون هدفاtheme أو شـيئا داخليا فى الشـعور أو الفكر، وقد تعنى أيضا الشـعور والفكر مجردين، أو تلك اللحظة الحدسـية الحية التى نستطيع عندها تمييز الماهية، وأخيرا قد تعنى الفكرة شـعورا أو فكرا ينشـأ عن قيمة ترنسـندنتالية ذاتيـة للاعتقاد أو الحكم، و يؤكد الحكم على الماهية المعطاة لكى نطبق صدقها على موضوعات أخرى آتية[2].

و بهذا المعنى الأخير فقد تعنى الفكرة عند سانتيانا مجرد الرأىopinion الذى يخضع للحكم عليـه بالصـدق أو الكذب، ولكن قـد تكون الفكرة مجرد شـعور برئ أو فكـر لا يؤكد على شيء أو ينفيـه، ولا يخضع للصدق أو الكذب، إنها حدس خالص لإحدى الماهيات. فإذا كانت الفكرة مفيدة فهى مفيدة ونافعة، ولكن لا تكون فكرة صادقة، و إذا كانت هذه الفكرة جميلة ومريحة، فليسـت لهذا السـبب تكون صادقة أيضاً، ولكن لكونها فكـرة مريحة وجميلة. و إذا كانـت الفكرة عبـارة عن تصور أو ربما قد تكون منسـجمة مع فكرة أخـرى، فإن الفكرتين تكونـان متناسـقتين، وربما التصوران معا قد يكونان على خطأ كبـير من أن يكون كل تصور بصورة منفصلة خاطئ على حده[3].

وهـذا مـا أكد عليه برتراندرسـل فى فلسـفة سـانتيانا، حيـث رأى أن عـالم الصدق عند الفيلسـوف محل الدراسـة يتضمن عالمى المادة والماهية، كما أنه يتضمن الماهيات التى يحتويها العـالم الفعلى، فقد يكون الصدق عرضيـاً منذ أن يصف الوجود، ولذلك كان مرتبطاً بالوجود. وأن وجهه النظر التى ترى أن الصدق يكمن فى الاتساق هى وجهة نظر مرفوضة وغير صائبة لأنها منطوية على عجز حتى الآن فالصدق ولا شك يخبرنا بشئ عن العالم المحيط بنا[4].

(1) Ibid: p.228.

(2) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.447.

(3) Ibid: p.448.

(4) Bertrand Russell: Philosophy of Santayana, in the philosophy of George Santayana,Edited by, P. A. Schilpp, Tudor publishing Company, New York, 1651, p.460.

ومـن أبرز نقـاط الضعف فى نظرية الاتسـاق التى رفضها سـانتيانا أنه لـو لم يكن لدينا هـذا الشرط المقيد وهو أن تتفق نتائجنا مع الواقـع الموضوعى على نحو قابل للاثبات لغدا من الممكن عندئذ تشييد أروع وأعقد البناءات الفكرية على مقدمات لا يزكيها شيء سوى كونها تتفق مع مصالحنا الأنانية، أو كونها تتفق مع تطلعنا إلى نظرة إلى العالم تعطينا ثقة وأملاً[1].

أما الخطر الأسـاسى فى (نظرية الانسـاق) هو أن الذهن غير النقدى قد يعجب بالبناء فى صورتـه النهائيـة ونتائجـه إلى حد يؤدي به إلى إغفال ملاحظة الأسـس التى شـيد عليها البناء بأكملـه وكثيراً ما يحـدث عندما يقوم مفكر تحليلى بكشـف هذه الأسـس، وأن يتغير موقف الذهـن الـذى كان قبل ذلك يقبل النسـق بأكمله فيتحـول إلى رفض الكل، لأنـه لم يعد يقبل المقدمات الأصلية، ولكن الأكثر من ذلك حدوثاً أن ينقب هذا الذهن حوله محاولاً وضع أسساً خاصـة به تتألف من مقدمـات مقبولة أكثر من الأولى، ثم ينقل البناء الفكرى بأكمله سـليماً فوق الأساس الجديد[2].

وهنا يؤكد سـانتيانا على إصراره فى رفض نظرية الاتسـاق وشـتى الأنظمة المثالية الطابع، وإن كانـت واقعية سـانتيانا كـما أشرت فى بداية الفصل مشـوبة بنوع ما مـن الفكر المثالي، فـإن ذلك لا يمنعه من دحض الأفكار المثالية بوصفه فيلسـوفا طبيعيا أو واقعيا نقديا فى أواخر فلسـفته، فقد رأى فيلسـوفنا أن الأنظمة المثالية مازالت تطور وتـدرس شروط المعرفة الأولية وآخـر اهتمامات الحياة، أما الأنظمة المادية فمازالت تؤكد على هذه التحجرات concretions فى الوجود، لهذا كانت القيمة الروحية لهؤلاء الفلاسفة المختلفين تكمن بشكل أصلى على نوع الخير الذى يربط العقل بهذه العادةhabit كما يربطه بمسـتوى الفكرة[3]. فالفيلسوف الطبيعى على هذا الأسـاس يرحب بفكرة النقد وذلك لكون تراكيبه على الرغم من كونها ليسـت أقل إفتراضية أو تأملية، عن ذلك الفيلسوف المثالى، ولكن لكون تركيباته وبنائه عبارة عن بناءات شرعية وقانونية، كما أنها عبارة عن حقائق واضحة وصريحة[4].

(1) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، مرجع سابق، ص162.

(2) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.185.

(4) Ibid: p.201.

وبالنسبة للصدق فهو عبارة عن فكرة واضحة وصريحة، كما أنه عبارة عن افتراضات مؤكدةverified hypothesis وحتميةinevitable وأيضا عبارة عن استنتاج مؤكد. فإذا كان الفيلسوف المثالى يخشى ويستنكر أى نظرية لمصدره ووظيفته الخاصة، فإنه عندئذ فقط يدين لغريزة التحفظ الذاتى، وذلك لأنه يعرف تماما أن ماضيه لا يقبل الاختبار، لذا فهو يعد الوارث لكل خرافة[1].

يقول سانتيانا إنه إذا كان المذهب المثالى راسخا فى كل بناء جاء للعقل الإنسانى، فإن المذهب التجريبى يمثل كل هذه الطاقات وذلك الكون الخارجى. أو كما يقول اسبينوزا عنه يجب أن يتعدى المذهب التجريبى طاقات الإنسان بشكل لا نهائى، فإذا كان التأمل meditation يغذى العلم، فإن الحكمة تأتى من خلال التحرر من الوهمdisillusion حتى فى موضوع العلم ذاته، فإن الانقياد أو الانصياعdocility نحو الوقائع هى التى تصنع عقلانية العلم[2].

وإذا كان سانتيانا يقول بأهمية الإشارة إلى الصدق على أنه جزء من عالم الماهية، ينشأ عنها، وذلك لكى نتجنب ما اعتبره من أخطاء البراجماتية والنزعة المثالية (نظرية الانساق أو الترابط) معاً. حيث جعلت البراجماتية الصدق جزء من وظائف الخبرة، مما أدى إلى الخلط بين الخبرة والصدق، أو بين الخبرة وعالم الروح، وهذا ما نفيناه فى الفقرات السابقة، فالخبرة والروح كلاهما يتغير وعليه فإن البراجماتية تؤكد على أن الصدق ذاته صدق ديناميكى Dynamic ومتغير Changing[3].

كما يرى سانتيانا فى موقف البراجماتية من الصدق تناقضا أيضاً، طالما أن الحوادث هى التى يصدق عليها التغير وليس صدقها، فإذا تغير الصدق الذى توصف به الحوادث، فإنه ستصبح بالتالى بعض أنواع الصدق كاذبة، وهذا محال[4]. وكذلك بالمثل فإن النزعة المثالية التى تجعل من الصدق حقيقة ذهنية فطرية، ومكان وجوده العقل، وأن باستطاعة العقل إدراك الصدق إدراكاً فطرياً، فإنه يبدو أن النزعة المثالية تخلط بين الفكر أو عالم الروح the Realm of Spirit

(1) Ibid: p.201.
(2) Ibid: p.202.
(3) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, pp.228, 229.
(4) Ibid: P. 229.

وبين الصدق. وهنا يعلن المثاليون على أن وجود الصدق وجوداً منطقياً يتطلب العقل الذى يدركه، لأن الصدق الذى لا يمكن للعقل إدراكه ليس صدقاً على الإطلاق. ونخطئ عندما نتناول الصدق كشيء موجود نبحث عنه فللصدق وجود كلى Being طالما أنه ماهية معقدة a complex essence أو مجموعة من العلاقات وليس له وجود فعلى Existence، فالصدق يصف فقط هذا الوجود الكلى وليس جزءاً منه[1].

وبناء على ما تقدم يرى سانتيانا - أن استاذه «جوزايا رويس» وسائر المثاليين قد أخطئوا عندما ذكروا أن هناك أنواعاً من الصدق الضرورى ضرورة منطقية، فالمنطق يمدنا فقط بمعلومات عن مضامين أحاديثنا ورموز أفكارنا وليس عن قيمة صدق أفكارنا. فلا توجد حقيقة لها ضرورة منطقية، طالما أن الضرورة وظيفة من وظائف الكلام أو هى الطريقة التى نحدد بها الرموز لنشير إلى هذه الأفكار، وفضلاً عن ذلك فلا توجد قضية صادقة عن طريق تعريفها فقط، طالما أن حرية تعريف الحدود Define Terms تعود إلينا، فالصدق إنما يشير إلى ما يحدث فى وقت محدد[2].

من خلال ما سبق فإن طبيعة الصدق عند سانتيانا هى ببساطة التطابق correspondence مع ما هو كائن، أما البراجماتية فهى تعنى اختبار الصدق أكثر من كونها تطابقاً مع الواقع، وباختصار تكون طبيعة الصدق هى التطابق بينما اختبار الصدق هى البراجماتية[3].

(1) Ibid: p. 229.

(2) Ibid: p. 229.

(3) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

الفصل الرابع

الصدق المنطقي

الفصل الرابع

الصدق المنطقى

المنطـق هو العلم الذى يبحث في صحيح الفكر وفسـاده، وهو الذى يضع القوانـين التى تعصـم الذهن من الوقوع فى الخطـأ فى الأحكام، فموضوعه هو الفكر الإنسـانى من ناحية خاصة، وهى ناحية صحته وفسـاده، ويتم له ذلك عـن طريق البحث فى القوانين الفعلية التى يتبعها العقل الإنسـانى فى تفكـيره، فما كان من التفكـير موافقاً لهذه القوانين كان صحيحاً، ومـا كان مخالفاً لها كان فاسداً[1]. ولذلك كانت غاية المنطق هى توجيه الفكر للوصول إلى الحقيقة، فهو إذاً يحلل أنواع التفكير وأسـاليبه، ويبين وظيفـة كل نوع وصلته بالأنواع الأخرى كـما ينقد الفكر الخاطئ ويظهـر مواطـن الضعف فيه[2]. معتمدا فى ذلـك على منهجه وهو التحليـل النقدى القائم على التفكير[3].

وعلى هذا الأساس لابد أن نتساءل....

إذا كان للمنطـق كل هـذه الأهمية فى توجيه الفكر للوصـول إلى الحقيقة، فما هو المنطق الذى يدعو إليه سانتيانا فى فلسفته، وما هو مفهوم الصدق المنطقى؟

يرى سـانتيانا أن المنطق هو المنطق، كما أن أنظمة العلاقة التى تم اكتشـافها بين عناصر الماهية لا تشكل الصدق ولكن تشكل أنواعاً أخرى من الماهيات التى تحوى فى داخلها الماهيات

(1) على عبد المعطى محمد، السيد نفادى: المنطق وفلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م، ص 20.

(2) جميل صليبا: المنطق، مؤسسة عويدات، بيروت، د. ت، ص 10.

(3) بول موى: المنطق وفلسفة العلوم، مرجع سابق، ص27.

المرتبطـة بعضها ببعض، وتكون جزءًا من الماهية الرئيسـية. وتصبح هذه الأنظمة مثل الحدود المنطقية عبارة عن وسيلة للتعبير عن الصدق، وذلك إذا تم اكتشافها وجعلها تقف وجها لوجه مـع تفكيرنا الاسـتنباطيour deductive reasoning والصدق حينئذ سـيقوم بترويض المنطق الخـاص بنا فى العالم[1]. ولكن إذا كان المنطق يرفض أن يقوم بهذه التضحية الأولية بذاته ليلقى بنفسـه نحـو الدافع والصـدق أو الحقيقة، فإنـه يصبح عندئذ وبسرعة غـير عقلانى كما يفقد تبريراته الخاصة، وذلك لكونه يتواجد من خلال فضيلة الدوافع الإنسانية[2].

إذا كان العالم كما يقول الفيلسوف محل الدراسة يعيش فى حالة من الفوضى، فإن الصدق فى هذه الحالة قد يتخلى عن وجود العقل أو يجعل العقل موجودا فى أقل مسـتوياته، ولكن مع كل هذا توجد عقلانية جزئيةpartial rationality أو تعهد عقلانى فى الأشـياء التى ساعدت العقـل فى توضيح أفكاره وتطويـر منطقه[3]. فالمنطق هو طفل الواقع عند سـانتيانا، كما أن الروح هى الطفل الذي يولد من النفس، فالمنطق هو الطفل العنيد الذي ينكر أن يكون اللبن الحلـو المـذاق قد تغذى وتربى عليـه فى الصغر، إنه لا يبقى فقط فى المـاضى، بل يحدد بصورة أساسـية اختبار الماهيـات التى ترتبط فى علاقة مـا بالمنطق، ولكنه يبقى بشـكل معاصر فى هـذه الحالة، حيـث أن الأفكار عند علماء المنطق يتم التحكم فيهـا عبر الحوادث الفيزيقية والضغوط الاجتماعية[4].

مـن خلال ما سـبق يتبين لنا أن المنطق عند سـانتيانا يرتبط ارتباطًـا وثيقًا بالصدق، ولكن هذا الصدق الذى يشير إليه سانتيانا هو مطابقة الواقع الفعلى، وعليه يكون المنطق هو المنطق الواقعى الذى يعتمد على العقل، والصدق هو التطابق مع هذا الواقع، فهو يقول إن المنطق عند ارتباطـه بعنصر الواقع، فإنه ينجح فى أن يلعـب دورا أخلاقياً هاماً، وذلك على اتجاهين: حيث يضفى المنطق على العالم صفات إنسانية، تلك الصفات التى نفكر ونستخدم فيها العقل، حيث يحيـى التأملات الأبعد وصـولاً فيها وموحداً بينها وبين الحياة الواقعيـة. ومن ناحية أخرى فإن المنطق يتقفى ويتحسس آثار أشعة الصدق، أعنى بذلك أنه عندما يكون أحد الحدود المعروفة

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.419.

(2) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.199.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.419.

(4) Ibid: p. 220.

فى مجال المنطق يصف الواقع، فإن النظام المنطقى بأكمله يتصل بهذا الحد، وبالتالى يصبح جزءً من الصدق[1].

يرى سانتيانا أن مصطلحات المنطق نفسها ترتبط بلمحات من الحقائق أو الوقائع، حيث نعمق من هذا الإدراك الإنسانى والأخلاقى عندما نطور بصورة مثالية الأنواع التى يرتديها العنصر الواقعى فى حد ذاتها أو عندما يقيم علاقة بين القدرات والاهتمامات الإنسانية مثل الشاعر الذي يتعمق فى إحساسه بالجمال، فإذا كانت إحدى الجماليات موجودة فى عقله فإنه يتذكر الأخرى منها، كما أنه يجد صوراً بلاغية وكلمات موسيقية معبرة عن موقفه[2].

لقد أكد سانتيانا أن المنطق يتضمن صدقاً طبيعياً فيما تناوله من نظريات فى بداية نشأته، وعلى وجه الخصوص فى مجال القياس، فقد ساعدت الدراسات التى تقدمت فى مجال الموضوعات المادية على تكوين صور ذهنية دقيقة فى العقل الإنساني، فالأفكار ليست صادقة لأنها واضحة، بل على العكس فهى واضحة لأنها صادقة، وهذا ما شجع الصدق على الخوض فى الموضوعات الديالكتيكية[3]. وهنا يجب القول أن ما هو ضرورى منطقياً ليس بالضرورة صادقاً، حيث يكون الصدق فى هذه الحالة محتملاً ويكون عبارة عن قضية ضرورية، لأن الحقائق من خلال التعريف تصنع صحة الصدق وكل الوقائع، ومن خلال التعريف تكون هذه الحقائق محتملة، لكن لا توجد ضرورة فى هذا الاختبار أو فى تطبيق هذه التصنيفات كعنصر ضرورى أو جعله صدقاً أو واقعاً، وهذه التصنيفات لا تمتلك بالضرورة الصحة فى كونها تعبر عن الواقع. وسانتيانا ينظر لذلك كأمر واقعى حيث تمثل هذه التصنيفات الصدق أو على الأقل معبرة عن الصدق بدرجة كافية، فهذه الأنواع تشتمل على فكر إنسانى بطريقة عادية مما يجعل الواقعية Reality تبدو بشكل تام عبارة عن تصديق[4].

وقد كتب فيلسوفنا تحت عنوان «مذهب المطلق المتعالى»، يقول « إنه إذا كانت الرياضيات والمنطق وكل قوانين العلوم أهم من قواعد الشطرنج من وجهة نظر الطبيعة، فإنها

(1) Ibid: p. 222.
(2) Ibid: p. 422.
(3) Ibid: P. 443.
(4) Ibid: p. 224.

لا تختلف إختلافاً أساسياً عن قواعد الشطرنج. فالمادة أو العقل قد يلتزم بهذه القوانين، وقد يستمر في التزامها. لكن سريانها محدود. وهى لا تكون ذات أهمية أساسية إلا فيما يتعلق بنفسها في عالم الماهية، أما فى الطبيعة فهى سائدة على أساس الوقائع فحسب، وهذا أقصى ما يمكن أن يقال فى شأنها»[1].

وعندما كان الصدق مرتبطاً بالواقع - فإنه لا توجد حقائق منطقية بحته ولهذا فإن الرياضيات وهى تتناول فقط العلاقات بين الماهيات، فهي ملزمة شكلاً Formally Cogent ولكنها ليست حقيقية، فحين تطبق الرياضيات على عوالم الوجود فإنها تدرج ضمن الحقائق[2]. حيث يقوم علماء الرياضيات بتطوير معنى بعض الأفكار المعطاة لديهم، وكذلك يبحث عالم النفس فى أصل هذه الأفكار كما يصف علاقة هذه الأفكار بباقى الخبرات والتجارب الإنسانية، والنبى يطور من نشوته، وكذلك اللاهوتى يطور من نبوءته والتى لا تمنع المؤرخ فيما بعد من أن يصل و يظهر بعد ذلك أصل هذه الفكرة[3].

إن الاختلاف بين المنطق والصدق عند سانتيانا يعد اختلافاً احتمالياً، فيقول سانتيانا بصدد ذلك أننى ليس لدى الرغبة فى الدخول فى معارك مع الجنس البشرى لاستخدام الكلمات التى يختارونها فى الحديث عن الصدق، وأيضا فى المواقف والحالات التى يكون فيها فقط انسجاماً واتساقاً. فيوجد الكثير من الصدق حتى فى إحساسى عنه، كما أنه يكون صدقاً ممكناً إذا ما ارتبطت الفكرة التى تصف الأفكار الموجودة بالفعل فى العقل الإنسانى وليس فقط عن طريق الصدق النفسى والتاريخى الذى يصف الأفكار، ولكن يكون الصدق الصورى formal truth فى وصف الفكرة المقبولة فى حدود تختلف عن تلك الحدود التى ارتبطت بها الفكرة فى البداية، ونعنى بهذا أنها تغيراً فى التعبير الذى يقدم تحليلاً لهذه الفكرة، ويسهم فى استخراج الماهيات الأساسية فيها[4]. فالرياضيات والمنطق ونوع معين من علم النفس ربما يصنع علم

(1) جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، بحث منشور فى كتاب «فلسفة القرن العشرين»، إعداد / راجوبرت د. رونز، ترجمة / عثمان نويه، مراجعة/ زكى نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963، ص 93.

(2) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 582.

(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.197.

(4) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.426.

الظواهـر المنطقيـة Phenomenological Science بمعـنى وصفا مخلصا لعـدة مجالات للماهية التـى تـم بالفعل اختيارهم فيها، كما يجب أن ندع لهذا أن يحدث على الأقل، وذلك على أسـاس عنصريـة اللغـة الإنجليزية، فعلى الرغم من كونها لغة صحيحة موثوق بها فهى مع ذلك تدعى الصحة والحقيقة[1].

و إذا كان هيجـل قد اسـتطاع تحليل معاني الأفكار باسـتخدام الجدل مما يسـاعد على بقاء قوة الأقيسـة المنطقية كما هى سواء أكانت أقيسـة منطقية خالصة أم أقيسة تجريبية مسـتمدة من البيئة المحيطة بنا. فإن سـانتيانا أيضاً قد اسـتطاع تحليل قواعد اللغة وربطها بالمنطق، حيث رأى أن المنطق هو الشكل النهائي الراقي لقواعد اللغة، فإذا استطاع الفكر تأسيس قاعدة نحوية ينتج عنها تقسيم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة، وعنها ينتج أيضاً قاعدة أخرى فى صفات الأسـماء، أى الصفات التى نمنحها للأسماء والصفات جنباً إلى جنب، كل زوجـين معاً مثلما نرى فى المدارس المختلفة الإناث مع الإناث، والذكور مع الذكور، وكل اثنين معاً، فإذا اسـتطاع الفكر القيام بذلك فإن قواعد النحو لا تحتاج إلى مثل هذه المماثلة الجنسية[2].

وعلى هذه الجدلية فإن سـانتيانا لا يسـتبعد المنطق الترنسـندنتالى من نزعته المادية، ولكن يعترف به عندما يأخذ مكانه فى التفكير ويكون فى درجة ثابتة مع النزعة المادية مثلما يكون منسجما وعلى اتسـاق مع الاتجاه المادى، وكذلك يعترف سانتيانا بسيطرة القواعد النحوية على اللغـة، وذلك عندما تطور اللغة الجزئية النحـو الجزئى، ولهذا يكون المنطق مترابطا مع الاتجاه المادى، كما تعمل اللغة كوسيلة اتصال، فعلى الرغم من أن اللغة يتم تطويرها بشكل عضوى، فإنهـا مع ذلـك لا يمكنها أن تفرض قاعدتها النحوية على الأشـياء أو عـلى اللغات الأخرى، إن المنطق الترنسـندنتالى يساعد بشكل متشـابه على النطق ببعض المدركات الخاصة والتى ترتبط بالمجال الذاتى أو المجال الشعرى[3]. فإذا كان للمنطق أى شرعية أو لكونه خصص لغرض معين لعلاقة الحقائق البعيدة المدى، فإنه علاوة على ذلك يبقى سـؤالا مطروحاً. حيث إن كل تطور

(1) Ibid: p.422.

(2) Ibid: p. 239.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 506.

عقلى للمنطق يتسم بالأهمية المادية، منذ كونه لا يستطيع تقديم دلالة واضحة لأساسه المادى. كـما أن الأصـول الداخلية أو التكوينية للمنطق المتعالى تشـبه إلى حد كبير الشـعر والدين، حيث يفرض نفسـه بشـكل حر وبـدون قيود فى العـراء، أعنى بذلك أن المنطق الترنسـندنتالى لـه مكانة فى عالم الماهيـة، حتى هذا الدافع الحيوى الذى يدعم على اسـتقراره ويجعل الرياح الروحية تبدأ فى الهبوب من مكان آخر[1].

إن التأكيـدات المنطقيـة أو الصوريـة عنـد سـانتيانا لديهـا الصحـة والشرعية فى اتسـاقها وانسجامها وليس فى توافقها مع قوة الملاحظة أو الواقع. ومن هنا فإن العلاقات الرياضية أو الصورية يمكن أن تتواجد بدون أن يكون هناك أحداث يمكن إدراكها أو ملاحظتها، فالعلوم الصورية أو الديالكتيكية كما يسـميها سـانتيانا أحياناً تختص فقط باتسـاق الأفكار المجردة، فعلى سـبيل المثال: إذا كانت كل أ هى ب، وكانت كل ب هى ج، فـإن الناتج من الناحيـة المنطقية هو أن كل أ هى جـ، وعلى ذلـك فإن النوع الوحيد مـن الصدق هو الـذى يكون فى النتائج الصورية أو الجدلية التى تكون فى الاتسـاق أو الترابط الأبدى[2].

ومن خلال ما سبق، نستطيع أن نستنتج حقيقة مهمة وهى أن سانتيانا يؤكد على أن الصدق مرتبط بوجود العقل Min، فلولا وجود العقل ما كان هناك خطأ أو صواب، كما أنه لن يكون هناك صدق أو كذب فيما عدا القضايا والأحكام التى لها صلة وثيقة ببعض الحقائق المحددة، لأن الصدق غالباً يسـتخدم بهذا المعنى المجرد، وهو مـا نطلق عليه لفظ الصحة Correctness كما أنه الصفة التى توصف بها كل الأحكام الصحيحة بوجه عام[3].

يشير سانتيانا إلى حقيقة مهمة فى عالم الصدق وهى أنه حتى ولو كانت الأفكار الرياضية أقل فى صدقها الواقعى للعالم، ولكن امتلاك هذه الأفكار ربما يكون عبارة عن دليل غير مباشر حيـث إنها عبارة عن قيمة إدراكية cognitive value كما تكون فى بعض الأحيان صادقة، فإذا أردنـا أن نقول بأن هذه الأفكار خاطئة، فإننا يجب أن نقدم أفكارًا أخرى أكثر واقعية وأكثر

(1) Ibid: P. 506.

(2) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, p.202.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal faith. op. cit , pp. 266,267.

صدقاً. ولكن ما هى الأفكار التى تكون أكثر واقعية من هذه الطبائع الرياضية، ونستطيع أن نعرضها فى حيز الفعل وديناميكية العالم؟[1].

أنـه إذا اقترنت الواقعية Reality بالكينونة الروحية، فإن الرياضيات تصبح لسـوء الحظ عديمة القيمة، كما أن دراستها تصبح جزءً من الماضى، بل ربما تكون خطيئة، فإذا انغمس رجل روحانى مثل باسـكال Pascal فى العلوم الرياصية فإنه سـوف يشـعر بالنـدم والعذاب الذاتى، حيـث أن الإيمـان الذي يتأسـس على علم المنطق هو إيمـان غير مدرك كما يكتنفـه الجنون[2]. ولذلك يتعلق الصدق أو الكذب بالأمور الفعلية للواقع - فيقال عن مقدمات الحجة أو نتيجتها إنها صادقة إذا جاءت مطابقة للواقع الفعلى، أما إذا جاءت غير متفقة مع هذا الواقع فإنها تكن كاذبة. فما يحدث في الواقع إذن هو محك الحكم بالصدق أو بالكذب[3].

إن النزعـة الداخلية للمنطق عند سـانتيانا ربما تكون غير متصلة بموضوع الصدق، وذلك لأن المنطـق يحمـل فى طياته صدقاً طبيعياً خاصة فيما تناوله من نظريات فى بداية نشـأته، وفى خطوطه الرئيسـية لنظرية الاستنباط deduction وفى العديد من عناصر تطوره. فقد ساعدت الدراسـات التى تقدمت فى مجال الموضوعات المادية على تكويـن صور ذهنية دقيقة فى العقل الإنسـانى، فالأفكار ليسـت صادقة لأنها واضحة، بل على العكس هـى واضحة لأنها صادقة، وهذا يشـجع الصدق باستمرار فى أن يخوض عالم المنطق فى تتبع الموضوعات الديالكتيكية[4]. وعلى الرغم من كون الصدق فى حد ذاته المجال الوحيد للماهية حيث ينشأ من حقيقة حتمية ومؤكـدة، إلا أنه يكون محددا كـما تكون الماهية محددة به، حيث يعمـل الصدق فى حد ذاته على تأسـيس انسـجامات معينة تسـيطر على عالم الفكر الذى برز بصورة أساسـية من خلال الاحداث[5].

وهنا يقول «شارلزهارتشـون» charles Hartshorne أحد الباحثين فى فلسفة سانيتانا: إن سـانتيانا ذكر الصدق كنوع من التقرير، أى أن الصـدق لا يحتاج إلى دليل، ومع ذلك فإن رأى

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.437.

(2) Ibid: p. 237.

(3) محمد مهران رشوان: أسس التفكير المنطقى، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2006، ص47.

(4) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.437.

(5) Ibid: p.446.

سانتيانا فى الصدق يأتى بمعنى أن «ما سوف يحدث» سيحدثWhat will happen will happen وأن هناك شـيئاً ما، وهذا الشيء محدد ويجب أن يكون صادقاً فيما يختص بقضايا المسـتقبل مما يستوجب معه تطبيق قانون الوسط المرفوع أو الممتنع(*) The law of Excluded Middle وأن كل قضية حتى و إن كانت تختص بالمسـتقبل لها قيمة صدق محددة. ولا يعنى هذا أن المسـتقبل يجب أن يكون ثابتاً لا يتغير(1).

(*) هو مبدأ الوسط المرفوع أو قانون الثالث المرفوع Excluded middle ويقرر أن أية قضية إما أن تكون صادقة أو كاذبة ولا ثالث بينهما - أى: (ق ٧~ ق).

انظر - صلاح محمود عثمان: المنطق متعدد القيم بين درجات الصدق وحدود المعرفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2002 م، ص 18.

(1) Charles Hartshorne: Doctrine of Essence in: the philosophy of George Santayana, Edited by, P. A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, p. 176.

الفصل الخامس

الصدق السيكولوجي

الفصل الخامس

الصدق السيكولوجي

لقد ظل علم النفس فرعاً من الفلسفة العقلية التأملية أكثر من مائتى عام بعد وفاة الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» - حيث أن موضوعه قد تحدد، ولكن طريقته فى البحث لم تزل تعتمد على طريقة الفلسفة فى البحث أى النظر والتأمل والبرهان والجدل فى قضايا ذات طابع فلسفى صريح ما برحت لاصقة بعلم النفس منذ القدم، مثل «ما الطبيعة القصوى للعقل»، «هل العالم الخارجى عالم واقعى أم من خلق الخيال Imagination»، «هل للإنسان إرادة حرة؟» وقد كان الخلاف على هذه القضايا كبيراً بين الباحثين، لأن النظر والتأمل دون سند من الطرق العلمية للملاحظة والتجريب يؤدى حتماً إلي الخلاف»[1].

إلا أن سانتيانا يرى أن الفلسفة الحديثة بدون شك فى ذلك، قد قامت بالنقد السيكولوجى لكل من العلم والحس المشترك، وذلك على أساس المفاهيم السيكولوجية، وتوصلت من نقدها إلى أن كل من الحقائق المفترضة ليست سوى أفكار كوّنها العقل البشرى وفقا لمبادئه، ولا وجود لها أبعد من العقل[2]. إلا أن هذا النقد السيكولوجى - كما يقول سانتيانا لا يمكن أن يستمر على الدوام إلى نفى وجود العقل البشرى ذاته، وما ينتج عنه من أفكار متعاقبة، وكذلك الطرق أو العادات التى يتبعها فى التفسير، فإنكار العقل يعد انتحاراً، لأن المعرفة إنما تدور داخل إطار العالم السيكولوجى[3].

(1) د/ أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، 1999، ص43.

(2) G. Santayana: Three proofs of Realism, in: Essays in Critical Realism edited by. Critical Realism Philosophers, Macmillan and Co. Limited, London, 1920, p. 173.

(3) Ibid: P. 173

ومن الأدلة التى تؤكد ذلك أن سانتيانا يعلى دائماً من شأن العقل ووظيفته فى الحياة، وعلاوة على ذلك يرى فيلسوفنا أن الروح الإنسانية قد تكتنفها الوساوس الحيوانية animal obsessions من جميع الجهات، إلا أن العقل البشرى يستطيع من خلالها أن يقوم بعمليات الاسترجاعRetain والمقارنة وتحليل انطباعتها الحسية، تاركاً صيرورة الوجود تنطلق بأقصى سرعتها لتحقيق ما تصبو إليه من غايات[1]. كما أنه لا يوجد أساس لانكار العلاقة بين العقل والفن، ومع ذلك فالعقل يعد أفضل من المادةmatter، وهذا الحكم نهائى لأن العقل فقط هو القادر على الحكم، ولذلك كانت صفة الانتباه بالنسبة للمادة صفة اختيارية، وذلك لأن وظيفة المادة تغذية العقل[2]. ووظيفة العقل هى السيطرة على التجربة، فالعقل بمثابة انفتاح واضح وجلى نحو الانطباعات الجديدة التى لا تقل أهمية عن هذه الغاية من كونه معبرا عن امتلاك المبادئ التى من خلالها يتم تفسير الانطباعات الجديدة[3]. فليس هناك شيئاً يكون أكثر طبيعية أو أكثر ملائمة مع كل هذه المتشابهات التجريبية من كون الحيوانات تشعر وتفكر[4].

والواقع يشير إلى أن دراسات علماء النفس تقوم على أساس موضوعى سواء أكانت هذه الدراسات حسية أم تصورية، فإنه فى كلتا الحالتين يتصل بمجالات جمالية أو أخلاقية مختلفة، ولا يقوم فيها الإيمان الحيوانى بدور الوسيط ولا يمكن أن ينقل بنفسه معرفة الصدق. ومع ذلك فإن الحدس الذى هو إدراك بسيط لواقعية الأشياء يأتى من الماهيات وليس من الأشياء، لأنه يلاحظ ما يقع بالفعل فقط ويدخل فى دائرة انتباه الإنسان[5]. حيث يعمل الحدس على كبح جماح ذلك الإيمان الحيوانى الذى يتضمن فى ذاته الخوف أو الدافع الفيزيقى، فعندما يتم توضيح المعلومات والبيانات وتأخذ شكل الواقعية ويكون تحقيقها فعلياً فإن المعلومات فى هذه الحالة تمثل الماهيات[6].

بناء على ما تقدم يرى سانتيانا أن الحدس المثير ينبع من العواطف والانفعالات، أى أنه

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.440.
(2) Ibid: p. 441.
(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.204.
(4) Ibid: p. 205.
(5) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, pp. 437, 438.
(6) Ibid: p.438.

يأتى عن طريق الحدث. والإنسان ربما يكون على دراية ووعى بانفعالاته وعواطفه، لذلك فهو يثار بشكل عجيب، ويتأثر بكل شيء. ولكن هذه العواطف ذاتها عبارة عن قوة آلية طبيعية تركت بدون رابط فى داخله حتى أصبحت أعمق من إدراكه لها، فإذا حاول الإنسان أن يضع عواطفه أو انفعالاته فى كلمات محددة أو إدراك طبيعتها الملائمة، فإنه فى هذه الحالة ينساق نحو روايات درامية فى معنى أبعد ما يكون عن الانفعالات الفعلية، كما ينساق إلى نوع من الأساطير أو ينساق إلى المنطق من خلال عبارة مجازية منطقية، حيث يرسم ويحدد بصورة خيالية حركة هذه السيطرة الأسطورية التى تعوقه وتسبب له الكثير من المشكلات، فإن الصدق هنا كما يقول سانتيانا هو الذى يوجه انفعالاته وعواطفه، كما أنه القادر على إدراك هذه السيطرة الأسطورية[1].

ولذلك يرى سانتيانا أن هناك الكثير من الصدق حتى فى إحساسنا عنه، فمن الممكن التوقع بأن الأفكار ليست فقط نفسية أو تاريخية الصدق، لأن وصف هذه الأفكار قد يكون نشأ فعلاً فى العقل البشرى، ولكن الصدق الصورى فى وصف فكرة مقبولة يختلف عن تلك التى كانت قد صيغت فى أول صدفة فى التعبير، والتى يمكن أن تستخدم لتحليل الفكرة و إبراز أوجه التشابه الأساسية[2]. فقد أخبرنا بعض علماء النفس - أنه على الرغم من أن نسق الحوادث الديناميكى ليس نسقاً رياضياً حقيقياً، فإنه ينبغى العمل على تنمية التصورات الرياضية لأنها مفيدة فى مجال الفنون العملية، ولكن التساؤل هنا كما يقول سانتيانا - كيف يمكن أن تكون هذه التصورات الحسابية مفيدة فى حين تكتنفها التصورات الخاطئة فى بعض جوانبها؟ وكيف تكون التصورات خاطئة فى حين أنها تصف النظام المؤثر فى الطبيعة التى تتحكم فى وجودنا وصحتنا وقوتنا الكلامية والتثقيفية بشكل أساسى؟[3].

يرى سانتيانا أنه إذا اكتسبت نظريات الحساب والهندسة ميزة القدرة على تنمية التصورات، فإنها تثبت دقتها وهيمنتها على العقل والخبرة، لأنها فى تجريداتها تصبح هى المقياس المؤكد لقياس الأشياء المادية[4].

(1) Ibid: p. 467.
(2) Ibid: p. 426.
(3) Ibid: P. 442.
(4) Ibid: P. 442.

ولذلك يقوم الخيال بدور هام في مجال إثبات الصدق - حيث به نعقد المقارنات Comparisons ونتصور به البدائل Alternatives. ونأسف لأنها لم تتحقق فى الواقع، وتصبح مصدر إلهام. حيث يملك الخيال القدرة على إدانة العالم كله بالفساد ووصفه بالكذب والخداع. وعلى النقيض منه يقوم الصدق بنشر ضوئه الساطع و إقرار ما يجب أن يكون، فكل الأخطاء والأوهام Illusions والمغالطات المرضية، والأساطير الشعرية الموجودة داخل العقل الإنسانى تأتينا فى غياب الماهية[1].

ولقد قام سانتيانا بالتفرقة بين علم النفس التقليدى (الأدبى) Literary psychology وعلم النفس العلمى. وهى فى الحقيقة تفرقة عميقة بين ما هو ديناميكى وما هو ظاهر، فمن الواضح أن فيلسوف الظواهر لا يرى مثل هذا التمييز لأنه لا يوجد شيء بالنسبة إليه إلا ما هو موجود على السطح فى الظاهر، وكذلك يرجع إلى عدم الربط بين الأحداث التى يمكن أن تكون عرضية إلا عن طريق الصدفة[2]. غير أن تمييز سانتيانا يتضمن مبادئ أخرى من وجهة نظره، حيث يؤكد فيلسوفنا على أن الأحداث الذهنية لها أساس فيزيقى تستند إليه، ومع ذلك فإن البيولوجيا (علم الحياة) وعلم نفس السلوك كليهما لا يستطيع أن يكتشف بطريقة مباشرة خاصية الشعور أو حتى وجوده[3]. أما علم النفس الأدبى فهو عبارة عن أسلوب للحديث عن هذه العمليات التى لا يمكن أن ندركها أو نفهمها فى تكوينها بالمرة، ولكن يمكن أن نفهمها جيدا من خلال معناها - أعنى من خلال ارتباطهم أو علاقاتهم الأخلاقية بعضهم ببعض، ولذلك فإن فهم و إدراك الصلة القوية بين الدافع a motive والحدث action ليس عبارة عن علم النفس الأدبى، ولكنه عبارة عن المعرفة السلوكية لهذه الطبيعة البشرية[4].

لقد نظر سانتيانا إلى الفلسفة التقليدية وعلم النفس الأدبى على أساس أنهما عبارة عن فوضى للعلم الجدلى فى علاقته بالعلم الطبيعى. حيث إن العلم الطبيعى يستخدم العلاقات الجدلية بشكل صحيح كمعنى لهذه النهاية، ولكن لا يمكن أن تكون كبديل للعلاقة الصورية للصدق المادى. فما الذى يحدث إذا تم وضع وقائع الطبيعة وحقائق العلم كمعنى ووسيلة لنهاية العلم

(1) Ibid: P. 442.
(2) G. Santayana: Apologia pro Menta sua. op.cit, P. 524.
(3) Ibid: p.524.
(4) Ibid: P.505.

الجدلى؟ ما الذى يحدث عندما تحاول الفلسفة وعلم النفس أن تؤسس ماديات الواقع أو الوجود من خلال علاقة الفكر المجرد أو الجدل المنطقى بدون أن تستخدم الملاحظة أو دلائل التجربة العلمية؟

إن النتيجة المتوقعة عند سانتيانا هى الحصول على علم زائف أو ميتافيزيقا أو الحصول على علم النفس الأدبى[1].

كما قام سانتيانا بنقد النظرية المثالية المتعالية، وذلك لنبذها النظرية الواقعية فى مجال الخبرة الإنسانية - والتى يوليها أهمية كبرى،أو حتى فى التاريخ الكلى، مما يجعل وجود الحقائق هو نفس الوجود السائد فى المثالية التجريبية Empirical Idealism، والتى تنتسب إليها المعرفة الجوهرية، حيث تعبر هذه الحقائق عن مبادئ إنسانية بذاتها تخضع للمنفعة أو عن الدوافع المنطقية والأهداف الأخلاقية وسائر الموضوعات ذات الصلة بالعالم غير الواقعى[2].

وينتهي سانتيانا فى نظريته الواقعية عن الصدق السيكولوجى إلى أن الصدق يصبح وسيلة من وسائل النجاح فى واحدة من أهم مجالات الحياة، ألا وهو التكيف المتسم بالذكاء Intelligent مع ظروف الحياة المختلفة المحيطة بالإنسان، وهذا التكيف هو تكيف حقيقى وعلامته القدرة على التنبؤ، وعلى التمسك بالخيال العلمى الصحيح، وعلى إظهار العواطف ذات الصلة الوثيقة بالحقائق، بل وأبعد من ذلك حيث يصبح وعى الإنسان أكثر من مجرد إحساس، أو ألم حاد يعتريه لذلك وجب على الإنسان أن يتطلع دائماً إلى امتلاك الصدق[3].

(1) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, pp.202.203.

(2) G. Santayana: Three proofs of Realism, op.cit, P.125.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P.446.

الفصل السادس

الصدق والزمن

الفصل السادس

الصدق والزمن

إذا كانت مشكلة الصدق هى مشكلة الفلسفة، فإنها على ذلك ليست مشكلة تاريخية مجردة، ولكنها مشكلة الزمن الراهن التى يثار حولها الجدل، ولذلك فهى مسألة غير منتهية النزاع[1]. حيث إن الزمن إحدى المشكلات الرئيسية التى يحاول الفكر الفلسفى أن يجد لها حلاً. حيث ارتبط الزمن دائماً بالوجود، فنحن لا نفكر فى أحدهما دون أن نفكر فى الآخر، فالوجود منذ فجر الفكر الفلسفي مرادف للحضور. والحضور يكون فى أفق الحاضر و يتكلم بصوته، والحاضر فى التصور الشائع يعد من الأبعاد الثلاثة التى تلازم تصورنا للزمن الذى يسير على طريق لا رجوع فيه من ماض إلى حاضر إلى مستقبل. والماضى فى تصورنا الشائع أيضاً هو الذى لم يعد له وجود. كما أن المستقبل هو الذى لم يوجد بعد[2].

وهكذا تنتهى النظريات الرئيسية للزمن إلى أنه الكائن السيال المنقضى دائماً: ماض لم يعد، ومستقبل لم يأت، وحاضر لا يكون أبداً، ينفلت من بين الأصابع دائماً. ومجرد الإمساك باللحظة الراهنة يعنى انفلاتها و إتيان اللحظة التالية لتنفلت هى كذلك فى توال لا يتوقف أبداً. أو لم نبدأ من اللحظة واللحظة «آن» و «الزمان « مكون من آنات يرفع كل منها الآخر، فهو تغاير مستمر، موجود بوصفه غير موجود، وغير موجود بوصفه موجود[3]. وعليها فقد صدق «جان بياجيه» J. Piaget حينما قال «إن الزمان مكان متحرك، والمكان زمان ثابت»[4].

---

(1) H. Wildon carr: The proplem of Truth, Dodge publishing, Co, New York, 1913, P. v. preface

(2) يمنى طريف الخولى: الزمان فى الفلسفة والعلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص26.

(3) المرجع السابق: ص27.

(4) المرجع السابق: ص19.

و يشير سانتيانا إلى أن علاقة الصدق بالزمن time تبدو لأول وهلة علاقة بسيطة، وذلك إذا أقيمت على مصطلحات شائعة بين الناس، فإذا قمت بإحصاء شامل لجميع الأحداث التى تحدث فى الزمن فسوف تحصل فى هذه الحالة على الصدق، ولكن الإحصاء الكامل complete repoty كما يقول سانتيانا على الرغم من كونه فرضاً جدلياً يحاول البحث عن الحقيقة إلا أنه يظل دائماً مثلاً أعلى «أى يوتوبيا فلسفية» لن يظهر إلى النور، بل يظل مجرد أمنية لا تتحقق[1]. فالصدق الكلى الذى ننشده لا يمكن الحصول عليه أبدا، لأن ذلك سيستغرق وقتا طويلا من عمر الإنسان، بل ربما يأخذ وقتاً أطول من الأحداث ذاتها عند حدوثها، حيث إن وسائل الملاحظة والتعبير عنها وسائل محددة بجميع المقاييس، وعلاوة على ذلك يعد المسح الشامل لهذه الأحداث ضرباً من المستحيل، وبالتالى يمكن اعتبار الصدق الكلى لهذا الكون مستحيلا معرفته. ولذلك فإن المسح البشرى الهائل للتاريخ يجب أن يكون تاماً وكاملاً، فالأحداث المستقبلية المتوقعة الحدوث يجب أن توضح وتبرز إلى النور، وعليها كان اكتشاف هذه الأحداث أو المسح الشامل لها لا يمكن أن يحدث بطريقة عرضية مفاجئة[2].

أن الصدق عندئذ كما يقول الفيلسوف محل الدراسة يبدو عبارة عن صورة من صور عالم الوجود فى كينونته الوجودية المجردة، ولذلك كان كل شيء فى بانوراما التاريخ مرتبطاً بالزمن، أما البانوراما ذاتها فهى بلا تاريخ محدد أى أنها دائمة التغير؛ لذلك كان نظام الأحداث ونسقها العام لا يمثل جزءًا من هذه الحقائق، ولا يمكن أن يحدث بعد أو قبل أى شيء آخر[3]. كما أن الصدق الذى نصف به الوجود يختلف فى خصائصه الأنطولوجية عن الوجود ذاته، فالحياة والحركةMotion قد انقضيا، وأصبحت كل المقاييس عبارة عن حقيقة واحدة متساوية فى صدقها، كما أن كل العصور أصبحت حاضراً على حد سواء، كما أن القوة والعقل والفعل قد أصبحت أحداث تاريخية، وأصبح الصدق فى هذه الحالة يشبه القمر الجميل، ولكنه كائن ميت، لأنه حتماً سيؤول إلى الماضى[4]. أى أن الحاضر يؤول إلى الماضى بالضرورة، والماضى هو

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P.485.
(2) Ibid:P.485.
(3) Ibid: pp. 485.486.
(4) Ibid: P. 486.

مقبرة التاريخ، فالزمان معطى مباشر للوعى، ولكنه معطى شديد التعقيد، وهذا ما دفع إرنست كاسيرر(*) فى كتابه «مقال فى الإنسان» إلى الإشارة إلى عدة مستويات لإدراك الزمن، أدناها «الزمن العضوى» وهو الموجود لدى الكائنات الحية حتى لدى الأشكال الدنيا منها، و إذا اقتربنا من الحيوانات العليا سنجد شكلاً جديد يسميه كاسيرر « الزمن الحسى» وهو ذو طبيعة سيكولوجية معقدة، وفي النهاية نجد «الزمن الرمزى» الذى يدخل فيه مفهوم الزمن الفيزيائى العلمى الدقيق[1].

وعلى الجانب الآخر يعتبر سانتيانا أن الصدق المليء بالأحداث أغنى من الوجود فى أى لحظة من لحظاته، لأنه لا يحتوى فقط على ماهية جميع اللحظات التى مرت بالأحداث بطريقة متساوية، ولكنه أيضاً يحتوى على أكثر مما تحصل عليه كل لحظة من اللحظات المنفصلة بعضها عن البعض الآخر، بل وحتى عن جميع اللحظات فى وجودها الداخلى Inner being[2]. فالصدق بهذا المعنى يمكن أن نسميه كما يقول سانتيانا - بـ « ذاكرة الكون» The Memory of the universe. ولكنه يعتبر أكثر من ذلك طالما أن مصير الكون يشتمل على الصدق فى داخله[3]. ولكن إذا كان التوقيت الزمنى للأحداث يمكن أن يكون معبرا عن العلم الصادق، فإن الذاكرة

(*) ولد الفيلسوف الألمانى إرنست كاسيرر Ernst Cassirer فى 28 يوليو سنة1874 بمدينة برسلاوBreslaw بألمانيا فى أسرة أحد التجار الألمان وقبل مولده فقدت الأسرة أحد أطفالها فكان لهذا الحادث وقعه الأليم عليها ومن هنا كان اهتمام الأسرة بمولد إرنست كاسيرر. وتمر الأيام ويصبح كاسيرر الطفل المدلل والابن المفضل بين أفراد أسرته ويستمر هذا التفضيل على الرغم ممن تعاقبوا بعده من الأبناء. كما يعد كاسيرر من أهم ممثلى النزعة الكانطية الجديدة فى العصر الحاضر، يجمع بين المنهج الصورى والنظرى والحس التاريخي الأصيل. هدف فلسفته - كما يقول - هو التمييز بين الأشكال (التاريخية) الأساسية المختلفة لفهم العالم بدلا من الاكتفاء ببحث الفروض والمبادئ العامة للمعرفة العلمية بالعالم. أهم كتبه: «مشكلة المعرفة في الفلسفة والعلم في العصر الحديث» (فى ثلاث مجلدات1906 - 1920)، فلسفة الأشكال الرمزية (في ثلاثة أجزاء عن اللغة والتفكير الأسطورى والدين، وظاهريات المعرفة، صدرت بين سنتى1923 و 1929)، كذلك له كتاب بعنوان»الفرد والكون فى فلسفة عصر النهضة» (1927). ولقد نشر كاسيرر مؤلفات كانط وحققها.

انظر - محمد مجدى الجزيرى: الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيرر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002م، ص11.

(1) يمنى طريف الخولى: الزمان فى الفلسفة والعلم، مرجع سابق، ص 32.

(2) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 486.

(3) Ibid: p. 486.

والخيـال المسرحى يكونوا أعضاء لهذا الصـدق، فالصدق يتغير عند لحظة معينة بنفس السرعة التى تتغير بها الحقائق التى يصفها[1].

والصدق لا ينفصل عن الماضى والمسـتقبل كما لا ينفصل عن الحاضر، وقد توصل سانيتانا إلى هذه الحقيقة كمصدر لتحديد الصدق بالنسبة لكل من الماضى والمستقبل، فإذا كانت هناك حقيقـة مرتبطة بالماضى مثلما نقـول « كان من الصدق أن نقول أن يوليوس قيصر كان حياً قبل شهر مارس» ولكن بعد ذلك أصبحت هذه العبارة حقيقية حيث أن يوليوس قيصر قد مات، بل نستطيع أن نقولها بطرق أخرى مثل أن يوليوس قيصر كان على قيد الحياة، أو نقول أن الصدق هو أن يوليوس قيصر كان حياً، فإن استخدام العبارة الأولى لا يجعلنا ننفى العبارات التالية، فإذا كان يوليوس قيصر حياً فى وقت معين، فقد كان إذن حياً[2].

وهنا يشـير سـانتيانا إلى أن هناك كلمتان تعانيانا بشـكل خاص من ذلـك النظام الفرضى، وذلك عند تغير الصدق الذى نتحدث عنه، وهما كلمة «أنا» وكلمة «الآن» فأنا أستطيع أن أقول بصـدق أننى الآن صغـيراً فى العمر، فى الوقت الذى أقول فيه بصـدق أننى الآن كبيرا فى العمر، لهـذا فـإن الصدق فيما يبدو لى قـد يتغير، ولكن لم يكن أبدا صادقـاً حيث أننى الآن صغيرا فى العمر، و إذا كانت كلمة الآن now تعنى سنة 1936 ولكن كلمة الآن منذ خمسين عاما تختلف عـن كلمة الآن فى هذا الوقـت الحاضر، ولهذا فإن الماهيـة التوكيدية ذاتهـا والحياة الوجودية تكون منقضية مثل كلمة الآن بالنسبة لهذا اليوم، فهى تختلف إذاً فى اللحظة الأبدية[3].

ولكننـا يمكننا القول إن الفكرة الأساسـية الموجـودة داخل العقل، تتصل اتصالاً أساسـياً بالواقع الزمكانى ككل. ويحتوى الماضى والحاضر على لحظات تظل طافية على سطح الأحداث، سـواء كان الحاضر على السطح تماماً أم يختص بفترة زمنية أبعد قليلاً. وباختصار فإن الحوداث المستقبلية قد لا تكون حقيقية تماماً حتى تتحول إلى جزء من الواقع فيتم التحامه بواقع لحظى حى يأخذ صبغة الحاضر الذى نعيش فيه[4].

(1) Ibid: pp. 488,489.
(2) Ibid: p. 489.
(3) Ibid: pp. 490,491.
(4) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.184.

ونستنتج مما سبق. أن الصدق هو تلك الأحداث التى مضت، كما أن وقائع الحياة تشهد على صدقها، وما نسميه زمن الماضى أو زمن المستقبل إنما يكون ماضيا أو مستقبلاً ابتداء من هذه اللحظة التى انطلق فيها، فلا وجود لماض أو مستقبل مطلقين، كما أنه لا وجود لزمن مطلق إلا إذا كان فكرة ذهنية مثالية وليست واقعية. فالحقائق عبارة عن ماهيات، وهذه الماهيات عبارة عن ماهيات أبدية[1]. والصدق الذي يتحدث عنه سانتيانا هنا هو صدق متجاوز للزمن وأبعد منه، كما أنه صدق أبدي، حيث يتناقض مع صيرورة هذا الوجود المتقلب، فكل الأشياء تمر وتنقضى وتموت من خلال الزمن، ولكن الصدق الناتج عن هذه الأشياء يظل باقياً فى كينونته الداخلية[2].

(1) Ibid: p.176.

(2) Ibid: p.176.

الفصل السابع

نظرية سانتيانا في الماهيات

الفصل السابع

نظرية سانتيانا فى الماهيات

إن الماهيـة Essence هـى اللفـظ الـذى اسـتخدمه سـانتيانا للتعبـير عن التصـورات والمعـانى، حيث اعتمـد فى ذلك على نظرية أرسـطوطاليس فى الماهيـة أو الجوهر، ولكنه أزال منها كل الأوصاف الأرسـطية لكى يقدمها بهـذه التأثـيرات، فالماهية تعـنى المفهوم الـكلى وكذلك موضـوع الفكر، ولكنهـا لا تشـكل أى قوة مادية أو معنى مـادى، حيث إن إدراك هذه الماهيـة ينتج عن تفاعل العقل مع كل من المادة والبيئة. ولذلك تبقى المادة أصل الوجود وما يتوسط الفعل والحدث، أما عالم الماهية فهو يشمل كل تفكير ممكن[1]. وذلك لكون المعرفة والاعتقاد ليسوا نتيجة رئيسية للتفكير، ولكنهما عبارة عن اعتقادات للماهية لا يمكن الهروب منها. وأيضا يكون ذلك لكون الماهية ضرورية للحدث، حيث إن علم المصطلحات الإبستمولوجية هاماً وضرورياً للمعرفة، وكذلك يكون الاتجاه نحو إدراك الاعتقاد يكمن فى الإيمان الحيوانى الذى يتم فرضه من خلال الظروف الطبيعية[2].

وفي مذهب المطلق المتعالى يقول سانتيانا عن الماهية «لو أن نقادى حين أنكروا الماهيات، قد أدركوا بعقولهم فى وضوح ماذا ينكرون، لسلموا قبل ما قلت. إن الماهية هى أى شيء محدد، قادر على أن يظهر أو يكون موضوعاً للفكر، ووجود شيء له هذه الماهية مسـألة خارجية، لا علاقة لها بالمنطق ولا بعلم الجمال. لهذا فإن سوء الفهم يزيد أضعافاً مضاعفة إذا قلت إنى أؤمن بالماهيات الأبدية. لأن القارئ (وربما الكاتب أيضاً) معرض لأن يفهم من الماهيات التى يدوم

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

(2) Ibid:, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

بقاؤهـا، وفى هذا قذف بنظريتى إلى السـماء الأفلاطونية، حيث قـوى الخيال والآلهة والنجوم التى تتحكم فى مقادير الناس والأمم، وهكذا حشدت فى زمرة أصحاب الخرافات البالية، بينما أنا عدو لخرافات الزمن الحاضر ذاتها»[1].

وقد ظن هنرى توماس (أحد تلامذه سانتيانا فى هارفارد) أن سانتيانا قد أطلق اسماً جديداً للتعبـير عـن مثل أفلاطون، فأطلق عليها اسـم الماهيـات، فالماهيات عند سـانتيانا « كما يقول هنرى توماس - شـأنها شـأن المثل عند أفلاطون، ما هى إلا الصور الأصلية، أو النماذج الأزلية لكل الكائنات[2]. وكذلك ظن «جوزايا رويس» (أحد أساتذة سانيتانا فى هارفارد) أن سانتيانا قـد فصل بين الماهيـة والوجود، وهذا ما لا يرتضيه فيلسـوفنا - حيث يقـول «إنى لا أفصل بين الاثنين بل أميز بينهما، فمن البديهى أن الشىء لا يمكن أن يكون له وجود ما لم يكن له طابع، وإنما توجد الأشياء التى لها طابع إلى حد ما، ومع ذلك فالوجود يتضمن التغيير أو خط التغيير: فالأشياء قد يصيبها التحول أو بعبارة أخرى قد تسقط عنها إحدى الماهيات وتحل محلها أخرى. وعندئـذ يبدو أن الماهيات المفقودة قد انفصلت فعلاً عن الوجود، كما تنفصل أوراق الشـجر الميتة عن أغصانها»[3].

ولذلك لا يجب علينا أن ننظر إلى الماهيات عند سـانتيانا على أنها تكّون بناء هرمياً تتوقف درجاتـه بعضهـا عـلى البعض وليس يسـودها « لوغـوس»، يسرى فيهـا جميعاً كـما فى الصور الأفلاطونية وما شاكلها، ذلك أنه لا يوجد « عقل سرمدى» لا فى السماء ولا فى الأرض[4].

ولذلك يرى ريتشارد بتلر (أحد الباحثين فى فلسفة سانيتانا) - أن فكرة الماهية Notion of Essence عند سـانتيانا - يصدق عليها التعريف التالى: أن الماهية هى جوهر أى وجود، سـواء كان وجـوداً ممكنـاً أو وجوداً فعلياً، أنطولوجياً أو منطقيا، ماديـاً أو مثالياً، تصوريا أو واقعياً، بسيطاً أم معقداً[5].

(1) جورج سانيتانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص92.
(2) هنرى توماس: أعلام الفلاسفة، مرجع سابق، ص388.
(3) جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص91.
(4) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص581.
(5) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, p. 87.

وبالتالى تقوم فكرة الماهية عند سانتيانا - بدور هام، حيث يمكنها أن تخلص الفيلسوف من المشكلات المرهقة فى البحث الفلسفى، حتى و إن كانت هذه المشكلات إلى درجة كبيرة مدرسية أو اصطناعية. مثل المشكلة المتعلقة بالإحساسات والأفكار وكذلك الجزيئات particulars والكليات universals والمجرد Abstractوالمشخص أو العينى concrete، فليس هناك اختلاف فى الماهيات المعطاة، فالماهيات متساوية، ولكل منها صفتها وخاصيتها التي تساعد على أن تكون ماهيات متكاملة تكاملاً مثالياً[1].

وعلى الرغم من أن عالم الماهيات هو عالم كامل فى وجوده الفعلى اللامتناهى، وعلى الرغم من كونه فى وجوده ذاك غير متأثر بتطور الأشياء، إلا أنه متصل اتصالاً وثيقاً بسبب أزليته نفسها، بهذه التغيرات الدائمةً[2]. وكما يقوم مبدأ الماهية عند سانتيانا - على فكرة الهوية Identity أو الذاتية - حيث يتحدد وجود الماهية تحديداً كاملاً على أساس تعريفها، ولا نقصد بالتعريف هنا استخدام كلمات بعينها أو مصطلحات بذاتها، ولكننا نقصد بالتعريف، التعريف باستخدام الخاصية التى تميز الماهية عن أى ماهية أخرى. فكل ماهية هى ماهية فردية Individual تماماً، لذلك لا يوجد هناك سؤال فى عالم الماهية يتعلق بالتطبيق الخاطئ للهوية أو يتعلق بالغموض Vagueness أو التغير والتحول Shiftiness أو التناقض الذاتى self - contradiction[3]. كما تتصف الماهية بأنها كلية universal[4]. وبذلك يوصف عالم الماهية بأنه المعيار العام للمقاييس والاستمرارية[5].

والماهية كما يقول سانتيانا بسبب كونها فكراً صرفاً، وبسبب عدم وجودها وجودا فعلياً، وبسبب أزليتها، تكون موصولة بالوجود المادى من الداخل، لا بوصفها امتداداً لما هو موجود أو جزء منه، و يبدو أن هذا أمرًا غاية فى البساطة والوضوح، بحيث لا أكاد أعرف ماذا أقول لمن يجدونه قولاً غير مفهوم[6].

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal faith, op. cit.p.90.

(2) جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص ص90،91.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P. 18.

(4) Ibid: P. 18.

(5) Ibid: P. 19.

(6)جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص91.

ويوضح سانتيانا فكرة الوجود الضمني بقوله» إن ثمة سمة من الأسطورة الأفلاطونية تعلق بفكـرة الماهيات حتى يقال عنها إنها موجودة وجـوداً ضمنياً لا وجوداً فعلياً، والوجود الضمني معنـاه الديمومـة الكامنة والبقاء المطـرد في الزمن، لكن الأزلية وهي من السـمات الذاتية لكل الماهيات، غير محدودة بزمن. لهذا فإن نفس الماهية قد تتكرر مرات كثيرة وحينما يحدث ذلك، أو حينما تتمثل لنا ماهية على نحو ما يفترض لقوانين الطبيعة أو الأخلاق في عالمنا، فلنا أن نقول إن هـذه الماهيـات موجودة ضمناً لكننا لا نقول بذلك على أسـاس أبديتها التي يحدثها زمن، بل على أسـاس ثبات مزعوم في الأشـياء يحفظ للماهيات وظيفتها في الوقت الحاضر، فقواعد لعبة الشـطرنج مثلاً باقية ما بقي لاعبو الشطرنج على التزامها. فإذا هجرت لعبة الشطرنج وانصرف النـاس عنهـا، فإن قواعدها تصبح مجـرد «قواعد ممكنة» أو «ماهيـات» وكل ما يبقى منها هو «صـدق» القـول بأنها كانت في يوم من الأيام قواعد مقررة يلتـزم بها اللاعبون، ويمكن القول ببقاء الصدق الفعلي، لأنه حتى حين تحتجب الوقائع الخاصة به في الماضي أو في المسـتقبل، فإن هـذه الوقائع تضفي على الماهيات التي تتمثل فيها اتصالاً أبدياً بالوجود، لأنه حتى بفرض تغير الوجود تغيراً جذرياً سريعاً، فإنه لا يستطيع أن ينفي ماضيه أو مستقبله[1].

ويؤكد سانتيانا قوله السابق فيقول:» إن الوجود الضمني شيء يتعلق بالمادة، وبنواحي المادة سواء منها الفلكية والإنسانية والاجتماعية، ولا يصدق على الماهية. وإذا وصفت أي ماهية بأنها موجودة ضمناً ومنحتها سلطة دائمة على الأحداث، كنت من أسرى المذاهب الفكرية»[2].

ومما سـبق يكون هناك عالمين في فلسـفة سـانتيانا عـالم الماهيات وعـالم للوقائع الفعلية، الأول فيه أفكار عما يمكن حدوثه، والثاني فيه ما قد حدث فعلاً[3].

إن الماهيـات عبارة عن صور نقية وصافيـة أو نوعيات، وأن مثل تلك الماهيات تفصل بين الاندماج والهجوم والقوة التغييرية للوجود. فالماهيات تتواجد بشـكل مباشر في الإدراك وهي فقط الباقية والمسـتمرة في الوجود، والماهيات هي الأشـياء الوحيدة التي يمكن اكتشـافها بين

(1) المرجع السابق: ص ص 92، 93.
(2) المرجع السابق: ص 93.
(3) د/ زكي نجيب محمود: نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، الكويت، العدد السابع والعشرون، 15 أبريل 1990، ص 100.

صيرورة الأشياء الزمنية. إنها فقط عبارة عن صورة أو ماهية الأشياء وليست عبارة عن جواهر الأشياء المادية التى يمكن بالفعل أن تدخل إلى عقولنا أو تأتى إلى خبراتنا فى لحظات التخيل التى نعيشها أو حتى فى أحلامنا[1].

أن الماهيات عبارة فقط عن الصور أو ماهيات الأشياء التى نمتلكها، ولكن عندما كان الوجود ناء ومتغير و يبعد عن إدراكنا ونظرتنا له، فإن الماهيات وصور الأشياء يتم الكشف عنها فى عقولنا وذواتنا المفكرة. وقد تكون الماهيات حسية مثل اللون الأزرق، أو تكون ماهيات مجردة مثل العدد عشرة، أو تكون شعورية مثل وصف المانخوليا، أو ربما تمتلك أى درجة من التعقيد مثل الفكرة السرمدية «اللانهائية». فالماهية عبارة النظام الكونى أو الصورة العامة التى دائما لا تقبل التغيير، على الرغم من أن أى وجود فى أجزاءه وخصائصه دائما يكون فى موضوعه قابلية للتغيير[2].

ويمكن إيجاز موقف سانتيانا عن الماهية في عدة نقاط:

1- أن جميع الماهيات فردية ومكتفية بذاتها[3]. أى أنها تقوم بنفسها وتستمد وجودها من داخلها.

2- ليس لعالم الماهية قواعد أو تضمينات، كما أنها لا تحتوى على استثناءات معينة أو منطق معين[4].

3- المنطق هو الممر الذى تمر عليه اللغة المألوفة فى ميدان الماهيات للموضوعات التى لها صلة بها [5].

4- ليس هناك ماهية عامة، فالعمومية هى وظائف المصطلحات أو الحدود فى العلاقات الخارجية[6].

(1) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, p.202.
(2) Ibid: pp.202.203.
(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P. 78.
(4) Ibid: P. 81.
(5) Ibid: P. 90.
(6) Ibid: P. 91.

5- تقـوم الماهيات بإحـداث التغيرات والتعـددات الممكنة لكى تصبح صـيرورة الوجود صيرورة تامة.

6- تعمل الماهيات الخاصة بالحدس كرموز للموضوعات الذاتية والموضوعات المعرفية.

7- للماهيات قيمة أخلاقية أو جمالية باعتبارها موضوعات الفكر[1].

8- يوصف عالم الماهية بأنه عالم الممكنات، وذلك لكونه يمثل فكرة عقلية من الممكن أن تحدث غيرها فى عالم الممكنات المتعددة.

(1) Richard Butler: the mind of Santyana.op.cit, p. 173.

الخاتمة

في ثنايا الصفحات السابقة، قمت بعرضٍ عام للملامح الرئيسية للفكر الفلسفي عند جورج سانتيانا، وعلى الأخص فلسفة سانتيانا المادية، والتي اتصفت بالفلسفة الطبيعية حتى عُدّ سانتيانا رائدا للاتجاه الطبيعي في الفلسفة المعاصرة.

وقد ظهرت في هذه النزعة الكيفية التي تأثر بها سانتيانا بفلاسفة اليونان القدامى، وكذلك الحضارة الهندية القديمة وبخاصة إلى تعاليم جوتامابوذا. ولكن هل ينبغي علينا قبول هذه النزعة المادية التي ذهب إليها سانتيانا؟ وهل ينبغي علينا التسليم بتلك النزعة الطبيعية المادية في جوهرها التي نادى بها فيلسوفنا ضد الفلسفات المثالية والتجريبية الإنجليزية؟

إنه من العجيب أن يتجه شاعر روحي، ومفكر عميق، مثل سانتيانا إلى ربط عنقه في طاحون فلسفة مادية عجزت بعد جهود قرون عدة عن تفسير نمو شجرة أو ازدهار زهرة أو ابتسامة طفل. ولكن - إذا لم يكن للإدراك تأثير على الجسم في حركته، فلماذا تطور ونما ولماذا بقي في عالم لا بقاء فيه لأشياء عديمة النفع والتأثير[1].

إذا كانت هذه رؤية «ول ديورانت» لفكر سانتيانا الفلسفي، فإن هناك جون ج. ستوهر[2]. يرى أن سانتيانا في صدد إحاطته بالمادة، لايملك سوى التسليم بغير كلام - إزاء لانهائيتها غير المعروفة، ثم يصفها بأنها غير محددة، وأنها جزء لا شكل له يحيط بالجوهر، كما أن جوهر المادة لا يعتبر مادة بذاته، فهو شيء لا مادي ولا زمني، لأن المادة شيء غير مدرك بطبيعته.

---

(1) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى، مرجع سابق، ص ص606: 607.

(2) جون ج. ستوهر: مذهب الطبيعة.. غير الطبيعي عند سانتيانا، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200عام، ترجمة/ حسني نصار، مراجعة/ مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص292.

و إذا كانت المادة - كما يرى سانتيانا لا شكل لها، ولا خاصية، وأنها لذلك لا يمكن إدراكها أو معرفتها، فإن تحقيق خواص عالم المادة، أو العالم الطبيعي وتحديدها يصبح لا معنى له، كما كيف يتسنى لنا أن نشخص شيئاً لا يمكننا معرفته أو تحديد خواصه[1]..

وهكذا يقوم مذهب سانتيانا المادى على أسس متعارضة، تزعم لنفسها الاتساق حيث يقول: إن عالم تجاربنا المادى إن هو إلا صورة ذهنية أو لمحه عابرة، لعالم أرواحنا الذى هو عالم ماهيات، كما أننا لنلمح هذا العالم الحقيقى - عالم الماهيات - فى لحظات نشوتنا، وفى مثل تلك اللحظات نتحقق من أن العالم وحدة حياة متماسكة تتحرك فى تناسق متجهة نحو الله[2]. وبذلك يتضح مدى ما وقع فيه سانتيانا من الخلط وسوء الفهم خلال مناقشاته بين المادة كمعنى، وبين نسيجها (أو ماهيتها) الذى تتكون منه[3].

ويمكن القول أن النزعة الطبيعية عند سانتيانا ليست معصومة من الخطأ، أو بعيدة عن النقد، فقد هيأ سانتيانا لنفسه الانتقاد، حيث اعترف بأنه إذا لم تكن هناك قاعدة طبيعية فإنه لا يمكن أن تكون هناك معرفة إنسانية مطلقًا، وحتى إن كانت تلك النزعة الطبيعية أو ما وراء الطبيعة قد أُدِينت بأنها لا تملك هذه القاعدة التطبيقية فى عالم الحقيقة.

كما أن سانتيانا قد أكد أن الإيمان بالطبيعة يعيد إلينا تلك القدرة على فهم ذلك الإحساس الدائم الذى غالى نحو الحياة الحيوانية، ويصبح فيها العالم عبارة عن بيت وأصبح فيها أنا فيلسوف[4].

من خلال ما سبق نستطيع أن نرى مدى الخلط واللبس والغموض الذى أحاط فلسفة سانتيانا فى إطارها العام، وذلك حين عرض لفلسفته المادية الطبيعية والتى يعد إمامها فى الفلسفة المعاصرة، ولكن حتى يكون بحثًا منهجيًا موضوعيًا إلى حد ما، أقولُ أن سانتيانا عند عرضه لمذهبه الفلسفى خلال كتبه صرح فى بداية كتابه «النزعة الشكية والإيمان الحيوانى»

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2)هنرى توماس: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم، مرجع سابق، ص ص 390، 391.

(3) Joseph L. Blau: Men and Movements in American Philosophy, Prentice - Hall, Inc, New York, 1955, P.330.

(4)G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P 238.

Scepticism and Animal Faith - «أننا سـنجد نظامًا آخر للفلسفة، فإن وجد القارئ فى نفسه رغبة فى الابتسام فسابتسم معه فأنا لا أحاول أن أقدم للقارئ إلا المبادئ التى يتجه إليها عندما يبتسـم[1]. و يقـول أيضاً «أنا لا أطلـب من أحد أن يفكر بما أفكر فيـه، إذا كان يفضل تفكير الآخريـن، والأفضل إذا اسـتطاع أن ينظـف نوافذ روحه، لينشر جمال المنظـر وتنوع صوره، و إشراق ضوئه أمامه»[2].

ومن خلال تلك الرؤية السـانتيانية يتبلور مذهب سانتيانا الفلسفى، حيث اعترف بنفسه أنه يقدم نظامًا آخر للفلسفة، كما أنه لم يجبر أحدًا على الأخذ به والتسليم بصحة فلسفته.

ومما لا شـك فيه أنه لا توجد فلسفة من الفلسـفات قديمة أو حديثة أو حتى معاصرة تخلو من النقد. فالنقد سمة أساسية قام عليها الفكر الفلسفى طوال عصور التاريخ المختلفة، ولذلك كان لابد للباحث أن يعرض لأوجه الغموض التى اكتنفت نظرية سانتيانا عن الصدق.

عتـبر نظرية الصدق من أهـم النظريات الابسـتمولوجية في نظرية المعرفة فهى ليسـت نظرية ميتافيزيقية أو أنطولوجية، ولكنها منذ القدم كانت جزءً لا يتجزأ عن نظرية المعرفة، وحتـى و إن كان لهـا أثـر عظيم فى نظريـات المناطقـة المعاصرين، فيما عرف باسـم الصدق المنطقي، وكذلك كان لنظرية الصدق عمقاً كلياً داخل فلسـفة العلم، وفلسفة اللغة، ثم أخيرا فى فلسفة العقل، وهذا ما جعلها تتميز عن مفهوم الحقيقة Truth الذى يختص به مبحث الوجود والميتافيزيقا، ولكن سـانتيانا قلب هذه النظرية رأسـاً على عقب، حيث جعل نظرية الصدق إحـدى المهام الرئيسـية فى عوالم الوجـود الأنطولوجية، وبذلـك طبق عليها مذهبـه الواقعى النقـدى، حتـى جاء الصدق عنده باسـم النظرية الواقعية فى الصـدق، وبذلك أصبحت ضمن مبحـث الوجود وليـس المعرفة، ومن ضمن الأخطاء التى وقع فيها سـانتيانا أنه لم يهتم اهتماماً كلياً أو حتى جزئياً بفلسـفة المنطق، و إن كان سـانتيانا قد أشار إلى الأهمية الكبرى التى يقوم بها المنطق فى مجال الفكر الإنساني، و إن كان حديثه عن الصدق المنطقي متضمناً الصدق، فإن الصدق كان فى هذه الحالة هو الصدق الطبيعى أو الواقعى.

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P.V.

(2) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى، مرجع سابق، ص603.

أمـا المنطق عند سـانتيانا فقد كان هو منطق هيجل وليس هـذا هو المنطق المتعارف عليه عند رسل ووايتهد وفريجه وبيانو وغيرهم، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن سانتيانا - كان فيلسوفا للقيم الجمالية والأخلاقية من الطراز الأول، اهتم بالتناسـق والانسـجام بين الأشـياء أكثر من اهتمامه بالمنطق والميتافيزيقا.

أما نظرية سـانتيانا عن الماهية، فقد رأى بعضهم أن سـانتيانا قد ارتبط فيها بنظرية المثل الأفلاطونيـة، وبالتـالي تكون نظرية الماهية عند سـانتيانا، هى ونظرية المثل سـواء بسـواء، وبالتـالى تبعـد الماهيـة عن الوجـود. أما سـانتيانا فإنه يرفض ذلـك، ويجعل الماهيـة قائمة على التحديد، والتحديد لابد أن يكون فى الأمور الواقعية.

وفى نهاية الأمر - إن أى نقدٍ أو تعارض لا يقلل من قيمة الفكرة، بل يدعمها ويقويها، ويكفى هنا أن قدم لنا سانتيانا عالماً خاصاً أطلق عليه عالم الصدق، وعالم آخر عرف بعالم الماهية.

❐❐❐

ويمكن أن نستخلص من هذه الدراسة بعض النتائج الهامة، وهى على النحو التالي:

1. تباين اسـتخدام مصطلح الصدق Truth فى الفلسـفة الغربية، حيث قدمت له ترجمتين عربيتين هما: الحقيقة والصدق، حيث يجوز إتاحة الحرية للمفاضلة بينهما واسـتعمال ما يحبذه المترجم. ففي المنطق وما يتصل به من نظرية المعرفة لابد من اسـتخدام كلمة الصدق، لأن مدار الحديث هو صدق القضية أو التقرير أو العبارة، كما أن الصدق فى مجال المنطق يقابل الكذب، أما في الفلسـفة أو الميتافيزيقا فإننا يجب أن نستخدم كلمة الحقيقة، لأن مدار بحث الفلسـفة هو الوصول إلى الحقيقة، في حين اسـتخدم سـانتيانا كلمة الصدق كترجمة حقيقية لكلمة Truth الإنجليزية.

2. لقـد خرج سـانتيانا بنظريته فى الصدق من إطار المنطق ونظريـة المعرفة، ليصوغها في إطار جديد تحت اسم الوجود أو الأنطولوجيا، وذلك حتى تتلاءم نظريته فى الصدق مع اتجاهه الفلسـفى الذى عرف باسـم الواقعية النقدية، على الرغم من تأكيد سانتيانا على أن الصـدق ليس له مدلول مادى يدور حولـه، فالقضايا وحدها هى التى يمكن وصفها بالصدق أو الكذب فى فلسفة سانتيانا عن الصدق.

3 لقد رفض سانتيانا كل من النظريات المثالية للإتساق فى الصدق، وكذلك النظرية البراجماتية، حيث جعلت الأخيرة الصدق جزءًا من وظائف الخبرة، مما أدى إلى الخلط بين الخبرة والصدق أو الخبرة وعالم الروح، حيث رأى سانتيانا أن الخبرة والروح كلاهما يتغير، وعليه فإن البراجماتية تؤكد على أن الصدق ذاته صدق ديناميكى ومتغير.

4. أشار سانتيانا إلى عدة أنواع من الصدق، مثل الصدق التاريخى الذى يصف الحوادث التاريخية والصدق الصورى الذى يصف الأفكار المقبولة بصفة عامة، والصدق الرياضى الذى يرتكز على المصادرات والخبرة، كما أكد على انه توجد أنواع أخرى عديدة للصدق مثل الصدق الأخلاقى والصدق المنطقى والصدق السيكولوجي. وهذا هو الجديد فى نظرية الصدق السانتيانية.

5. إن الماهية فى فلسفة سانتيانا هى جوهر أى وجود سواء كان وجودا ممكنا أو وجودا فعليا، انطولوجيا أو منطقيا، ماديا أو مثاليا، بسيطا أو معقدا. كما يقوم مبدأ الماهية على فكرة الهوية أو الذاتية، وتتصف الماهية فى فلسفة سانتيانا بأنها كلية، ويوصف عالم الماهية بأنه عالم الممكنات، كما أن للماهية قيمة أخلاقية وجمالية باعتبارها موضوعات الفكر.

ملحق أعمال سانتيانا

(1) شيء مختلف تماماً (1884).

Quite Another things.

(2) قصائد أسبانية (1886).

Spanish Epigrams.

(3) السوناتا (1886) «هى قصيدة قصيرة تتألف من 14 بيتاً».

Sonata.

(4) نسق لوتزة الفلسفي (1889) «موضوع سانتيانا لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة»

Lotze's System of Philosophy.

(5) الموقف الحالى للكنيسة الكاثوليكية الرومانية (1892).

The Present Position of The Roman Catholic Church.

(6) عند الظهيرة (1892).

At Noon

(7) سوناتات وأشعار أخرى (1894).

Sonnets and other Verses.

(8) الإحساس بالجمال - تخطيط لنظرية فى علم الجمال (1896).

The Sense of Beauty: Being the Outlines of Aesthetic Theory.

(9) الشيطان: مأساة لاهوتية (1899).

Lucifer: A Theological Tragedy.

(10) تفسيرات في الشعر والدين (1900).

Interpretation of Poetry and Religion.

(11) أغنية لكارمل وقصائد أخرى (1901).

A Hermit of Carmel and Other poems.

(12) ماهية علم الجمال «الأستطيقا»؟ (1904).

What is Aesthetics ?

(13) حياة العقل أو «أطوار التقدم الإنساني»(*) (1905).

The life of Reason, or the Phases of Human Progress.

وينقسم إلى:

أ - العقل فى الحس المشترك (1905).

Vol. I: Reason in Common Sense.

ب - العقل فى المجتمع (1905).

Vol. II: Reason in Society.

ج - العقل فى الدين (1905).

Vol. III: Reason in Religion.

د - العقل فى الفن (1905).

Vol. IV: Reason in Art.

هـ - العقل فى العلم (1906).

Vol. V: Reason in Science

(14) ثلاثة فلاسفة شعراء (1910) «لوكريتيوس، دانتى، جوته».

Three Philosophical poets «Lucretius, Dante, and Goethe»

(15) النسق فى المحاضرات (1910).

System in Lectures.

(16) مقدمة لكتاب «اسبينوزا فى الأخلاق» (1910).

Introduction in Spinoza Ethics.

(17) التقاليد القديمة فى الفلسفة الأمريكية (1911).

The Genteel Tradition in American philosophy.

(18) نوافذ المذهب (1913).

Winds of Doctrine.

(*) حياة العقل أو أطوار التقدم الإنساني، قام سانتيانا بتأليفها فى خمسة أجزاء فيما بين (1905 - 1906)، وهى تمثل فى فكر سانتيانا فلسفة التاريخ بشكل تام. انظر - عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص582.

(19) بعض المعانى لكلمة يكون (1915).

Some Meaning of The Word is.

(20) الأثرة فى الفلسفة الألمانية (1916).

Egotism in German philosophy.

(21) الرؤية الفلسفية فى أمريكا (1918).

Philosophical Opinion in America.

(22) - المعرفة الرمزية والمعرفة الحرفية (1918) « كتاب مشترك مع علم النفس».

Literal and Symbolic Knowledge.

(23) ثلاثة براهين فى الواقعية (1920).

Three Proofs of Realism.

(24) شخصيات وآراء فى الولايات المتحدة (1920).

Character and opinion in the United States.

(25) مناجيات فى انجلترا والمناجيات الأخيرة (1922).

Soliloquies in England and Later Soliloquies.

(26) النزعة الشكية والإيمان الحيوانى (1923).

Scepticism and Animal Faith.

(27) قصائد مختارة: للمؤلف والمراجع (1923).

Poems; Selected by Author and Revised.

(28) ما لا سبيل إلى معرفته «المجهول» (1923).

The Unknowable.

(29) النزعة الطبيعية الميتافيزيقية عند جون ديوى (1925).

Dewey's Naturalistic Metaphysics.

(30) محاورات فى ليمبو (1926).

Dialogues in Limbo.

(31) عوالم الوجود (فى أربعة أجزاء) (1927 - 1940).

Realms of Being.

أ - عالم الماهية (1927).

Vol. l: The Realm of Essence.

ب - عالم المادة (1930).

Vol. ll: The Realm of Matter.

ج - عالم الصدق (1938).

Vol. lll: The Realm of Truth.

د - عالم الروح (1940).

Vol. lV: The Realm of Spirit.

(32) الأفلاطونية والحياة الروحية (1927).

Platonism and the Spiritual Life.

(33) خلاصة آرائى فى الفلسفة الأمريكية المعاصرة (1930).

A Bripf history of my opinions in contemporary.

(34) التقاليد القديمة فى الخليج (1931).

The Genteel Tradition at Bay.

(35) بعض التحولات فى الفلسفة الحديثة (1933).

Some Turns of Thought in Modern Philosophy.

(36) الدين النهائى (1934).

Ultimate Religion.

(37) البيوريتانى الأخير (1936) « مذكرات فى شكل رواية ».

The Last Puritan: A Memoir in The Form of A Novel.

(38) كتابات متناثرة (1936) «محاضرات ومقالات ومراجعات».

Obiter Scripta; Lectures, Essays and Reviews.

(39) اعتراف عام (1940).

General Confession.

(40) دفاع عن نفسى (1940)(*).

Apologia Pro Mente sua.

(41) عوالم الوجود (1942) «فى مجلد واحد»

Realms of Being (one Volume Edition)

(42) أشخاص وأماكن (1943) «الجزء الأول» السيرة الذاتية.

Persons and places: The Background of My Life.

(43) الفترة الوسطى (1945) « الجزء الثانى» أشخاص وأماكن.

The Middle Span: Vol. ll, Persons and Places.

(44) العالم جمهورى (1953) «الجزء الثالث» من أشخاص وأماكن.

My Host The world: Vol lll, persons and places.

(45) فكرة يسوع (السيد المسيح) فى الأناجيل (1946) أو «الله فى الإنسان»

The Idea of Christ in the Gospels.

(46) بعض تطورات النزعة المادية(1949).

Some Developments of materialism. «Essays»

(47) الأخلاقية والدين (1950)

Morality and Religion «essays».

(48) فى الشعر والنقد (1950)

Poetry and criticism «essays»

(49) السيطرة والقوة (1951).

Dominations and Powers.

(50) حياة العقل (1954) - «نصوص مختصرة أعدها سانتيانا بمساعدة دانيال كورى قبل وفاة سانتيانا، ثم نشرها كورى بعد وفاته».

The life of Reason (shortened version prepared by Santayana and Daniel Cory).

(51) الإيمان الحيوانى والحياة الروحية (1967).

Animal Faith and Spiritual Life.

(*) عنوان هذا المقال باللغة الإيطالية، أما ما بين دفتى المقال فقد كتبه سانتيانا باللغة الإنجليزية.

(52) مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى(*) (1969).

The Birth of Reason and other essays.

(53) النظام الطبيعى والحرية الأخلاقية (1969).

Physical order and Moral Liberty.

(*) هناك ترجمة عربية لهذا الكتاب، قام بترجمتها لجنة من الأساتذة الجامعيين، ضمن منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، وهى التى اعتمد عليها الباحث فى دراسته.

المراجع

أولاً: المصـادر

أ - كتابات ومقالات سانتيانا - المترجمة إلى العربية:

1- جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة/ لجنة من الأساتذة الجامعيين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.

2- جورج سـانتيانا: مذهب المطلق المتعالي، مقال منشـور في كتاب «فلسفة القرن العشرين» إعداد/ راجوبرت د. رونز، ترجمة/ عثمان نويه، مراجعة د/ زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م.

ب - كتابات ومقالات سانتيانا - باللغة الإنجليزية:

3- _____: persons and places, the Background of My Life, Charles Scribner's sons, New York, 1944.

4- _____: Realms of Being, one volume Edition, With A New Introduction By the Author, Charles Scribner's sons, New York, 1942.

5- _____: Reason in common sense, vol I, in: the Life of Reason, Archibal constable, London, 1905.

6- _____: Scepticism and Animal faith, Dover Publications, Inc, New York, 1925.

7- Santayana, George: Apologia pro Mente sua, in: the philosophy of George Santayana, Edited by Paul Arthur schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951.

8- _____: Dewey's Naturalistic Metaphysics, in: the Philosophy of John Dewey, edited by, p. A. Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951.

9- _____: General Confession, in: the philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951.

10- ـــــــــ: Three Proofs of Realism, in: Essays in Critical Realism, Edited by, Critical Realism philosophers, Macmillan and Co, limited, London, 1920.

ج - كتابات عن سانتيانا - باللغة الإنجليزية:

11- Butler (Richard): The Mind of Santayana, Routledge and kegan paul, London, 1965.

12- Skowronski (krzystaf piotr): Santayana and America, Values, Liberties, Responsibility, Cambridge Scholars publishing, uk, 2007.

13- Sprigge (Timothy L.S.): Santayana, an Examination of his Philosophy, Routledge kegan Paul, London and Boston, 1974.

ثانيا: المراجع العامة

أ - المراجع العربية:

14- الخولي (د/ يمنى طريف): الزمان فى الفلسفة والعلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.

15- ـــــــــ: مراجعتها لكتاب وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة/ عادل مصطفى، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005م.

16- الديدي (د/ عبد الفتاح): الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

-17- راجح (د/ أحمد عزت): أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، 1999م.

18- رشوان (د/محمد مهران): أسس التفكير المنطقي، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2006م.

19- ـــــــــ: فلسفة برتراند رسل، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، 1979م.

20- ـــــــــ: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984م.

21- رشـــوان (د/ محمد مهران، د/ محمد مدين): مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2004م.

22- زكريـا (د/ فؤاد): آفاق الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، 1991م.

23- زيـدان (د/ محمـود فهمى): فى فلسـفة اللغة،، دار الوفـاء لدنيا الطباعـة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003م.

24- صليبـا (د/ جميل): المنطق، مؤسسة عويدات، بيروت، د. ت.

25- الضـــوى (د/ محمد توفيق): نظرية الصدق عند برادلي، منشـأة المعارف، الإسـكندرية، 2003م.

26- الطويـل (د/ توفيق): أسـس الفلسـفة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1952م.

27- عثمـان (د/ صلاح محمود): المنطق متعدد القيم بين درجات الصدق وحدود المعرفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2002م.

28- كامـــل (د/ فؤاد): أعلام الفكر الفلسـفي المعـاصر، دار الجيل، الطبعـة الأولى، بيروت، 1993م.

29- محمـد (د/ على عبدالمعطي): دراسات في الفلسفة العامة ومشكلاتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991م.

30- نفـــادي (د/ على عبد المعطي، د/ السـيد): المنطق وفلسـفة العلـوم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م.

31- محمـــود (د/ زكي نجيـب): تصديره لكتاب جورج سـانتيانا: الإحسـاس بالجمال تخطيط لنظرية في علم الجمال، ترجمة/ محمد مصطفى بدوى، مراجعة وتصدير د/ زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب.ت.

32- ـــــــــ: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية بيروت، 1982م.

33- ـــــــــ: فلسفة وفن، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1963م.

34- ـــــــــ: من زاوية فلسفية، دار الشروق، بيروت، 1979م.

35- النشـــار (د/ مصطفـى): مدخل جديد إلى الفلسـفة، دار قباء للطباعـة والنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية، 2004م.

36- هويـــدي (د/ يحيـى): مقدمة في الفلسـفة العامـة، دار الثقافة للنـشر والتوزيع، الطبعة العاشرة، القاهرة، 2001م.

ب- المراجع الأجنبية المترجمة إلي العربية:

37- إيـــرل (وليـم جيمس): مدخل إلى الفلسـفة، ترجمـة/ عادل مصطفـى، مراجعة د/ يمنى طريف الخولي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005م.

38- آيـــر (ألفريـد جولس): الفلسـفة في القرن العشريـن، ترجمة ودراسـة د/ بهاء درويش، مراجعـة د/إمام عبـد الفتاح إمـام، دار الوفاء لدنيـا الطباعة والنـشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2006م.

39- توماس (هنري): أعلام الفلاسـفة - كيف نفهمهـم، ترجمة/ متري أمين، مراجعة وتقديم د/زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964م.

40- تـوماس (هنري ودانالي): المفكرون من سـقراط إلى سـارتر، ترجمة/ عثمان نويه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1970م.

41- جروسـمـان (موريس): دراسة واقعية حول فلسفة الشك في عالم سانتيانا، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200عام، إعداد/ بيتر كاز، ترجمة/ حسـني نصـار، مراجعة د/ مـراد وهبـه، مكتبة الأنجلـو المصريـة، القاهرة، 1983م.

42- ديـــورانـت (ول): قصة الفلسـفة من أفلاطـون إلى جون ديوي، ترجمـة/ فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، بيروت، 1988م.

43- سـبيـريدج (ت. ل. س): الصورة المميزة في الفلسـفة الأمريكية، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسـفة في أمريكا خلال 200عام، إعداد/ بيتر كاز، ترجمة/ حسـني نصار، مراجعة د/ مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1983م.

44- سـتـوهر (جون ج): مذهب الطبيعة.. غير الطبيعي عند سانتيانا، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسـفة في أمريكا خلال200 عام، إعداد/ بيتر كاز، ترجمة/ حسـني نصار، مراجعة د/ مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983م.

45- سـيـزاري (بـول): القيمـة، ترجمة د/ عادل العوا، منشـورات عويـدات، الطبعة الأولى، بيروت، 1983م.

46- شـنيدر (هربـرت): تاريخ الفلسـفة الأمريكية، ترجمة/ محمد فتحي الشـنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م.

47- مـــوي (بول): المنطق وفلسـفة العلـوم، ترجمة د/ فؤاد زكريـا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د. ت.

48- ميـد (هنتر): الفلسفة أنواعها ومشكلاتها - ترجمة / فؤاد ذكريا - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - القاهرة 1975م.

49- هيبسـون، أوكـونر: مقدمة في المنطق الرمزي، ترجمة د/ عبد الفتاح الديدي دار المعارف، القاهرة، 1978م.

50- وولـــف: فلسـفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936م.

جـ - المراجع الأجنبية.

51- Blau, Joseph L.: Men and Movements in American Philosophy, Prentice - Hall, Inc, New York, 1955.

52- Brownell, Baker: Santayana, The Man and The Philosopher, in: the philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951.

53- Carr, H. wildon: The problem of truth, Dodge publishing, co, New York, 1913.

54- Dennes, William Ray: Santayana's Materialism, in: The philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951.

55- Durant, will: Outlines of philosophy, Ernest Benn, Ltd, London, 1962.

56- fisch, Max H.: Classic American philosophers, Appleton century crofts, New York, 1951.

57- Hartshorne, Charles: Santayana's Doctrine of Essence, in: The philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951.

58- Russell, Bertrand: Philosophy of Santayana, in: The philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951.

59- Stroch, Guy W.: American philosophy from Edwards to Dewey, An introduction, van Nostrand Reinhold company, New York, 1968.

60- Sullivan, Celestin J.: Santayana's Philosophical Inheritance, in: The philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951.

61- Terzian, Shohing: writing of George Santayana, in: The philosophy of George Santayana, Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951.

ثالثًا: الدوريات.

62- أبو سريع (د/ أسامة سعد): الصداقة من منظور علم النفس، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد179نوفمبر، 1993م.

63- بوشنسكي (إ. م.): الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة د/ عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 165 سبتمبر، 1992م.

64- كـلارك (جي. جي): التنوير الآتي من الشرق، ترجمة/ شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 346، 2007م.

65- محمـود (د/ زكي نجيب): نافذة على فلسـفة العصر، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، الكويت، العدد السابع والعشرون، 15أبريل 1990م.

رابعا: الرسائل العلمية

66- الشـــامي (محمد محمد حسين): الحقيقة في فكر وليم جيمس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب فرع بنها، جامعة الزقازيق، 2002م.

خامسا: دوائـر المعارف

67- Concise Routledge: Encyclopedia of Philosophy, Routledge, London and New York, 2000

68 - Olafson (Frederick A.): Santayana, George, in: the Ency clopedia of philosophy, Edited by, Paul Edwards, vol Vll, Macmillan Reference, New York, 1996.

69- Prior (A. N): Correspondence Theory of Truth, in: the Encyclopedia of Philosophy, vol II, Edited by, Paul Edwards, Macmillan Reference, New York, 1996.

70- Stanford Encyclopedia of Philosophy, at, http://plato.stanford.edu/entries/santayana

71- White (Alan. R.): coherence theory of truth, in: the Encyclopedia of Philosophy, vol I, Edited by, Paul Edwards, Macmillan Refernce, New York, 1996.

سادسا: المعاجم والموسوعات

72- بـدوي (د/ عبد الرحمـن): موسوعة الفلسفة، جزءان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م.

73- صليبـــا (د/ جميل): المعجم الفلســفي، المجلد الأول، دار الكتـاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م.

74- صليبـــا (د/ جميل): المعجم الفلســفي، المجلد الثاني، دار الكتـاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، 1973م.

75- طـرابيـشي (د/ جورج): معجم الفلاســفة، دار الطليعة للطباعـة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1987م.

76- عبــد اللـه (د/ محمـد فتحي): معجم مصطلحات المنطق وفلســفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الثانية، 2009.

77- المعجـم الفلســفي: الصـادر عن مجمع اللغة العربيــة، تصدير د/ إبراهيـم مدكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م.

سابعا: كتابات في مواقع الإنترنت

78- John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana's Moral Philosophy, at,

http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR - ADM/magnus.htm